A R E F A L H U S S E I N I

نُصّ أشكنازي

عارف الحسيني



لوحة الغلاف إهداء من الفنان التشكيلي المقدسي سليمان منصور ويقول عنها:

"المستوطن فقد إنسانيته عندما قرر أن يصبح مستوطنًا، هو كتلة من الأسلاك الشائكة التي ترمز للقمع والاضطهاد. الشكل مصنوعٌ من سلكٍ واحد صدئ، ظاهرةٌ بدايتُه وكذلك نهايتُهُ، ومن الممكن أن يفرط بسهولة"

www.shorok.com

عارف الحسيني، روائي فلسطيني وُلِدَ ويعيشُ في مدينته "القدس"، أطلق مشروع ثلاثية روائية بَطَلَتُها الحَضَرِيَّةُ القدس، فصدر له في العام 2012م الجزء الأول من الثلاثية؛ رواية "كافر سبت" التي تُرجمت للإنجليزية، والجزء الثاني رواية "حرام نسبي" في العام 2017م، والجزء الثالث والأخير رواية "نُص أشكينازي" في العام 2024م. تتشارك الثلاثية في المكان، وتتالي الحقب الزمنية في أجزائها، بدءًا من الانتفاضة الأولى في "كافر سبت" وحتى العقد الثالث من الألفية الثالثة في "نُص أشكينازي".

الثُلاثية، هي شاهد حيّ يفيض بما لديه بلسان حال المكان، وليسَ خيالًا!

إتسفيكا المستوطن نصف الشرقي ونصف الغربي "الأشكينازي"، هاجر أبوهُ من العراق الى فلسطين حين قامت الحركة الصهيونية بإحضار اليهود عبر البواخر من العراق إلى فلسطين إبّان النكبة، أمّا أُمُّهُ فهي من يهود بولندا الناجين من المحرقة "الهولوكوست"، لعب الحظ والتوزيع غير العادل للجينات لصالحه، فكانت ملامحه غربيةٌ لأُمِّهِ، طولُهُ فارعٌ مع وجهٍ مُدَوّرٍ أشقرَ مائلٍ إلى الاحمرار، وعيناه بنيّتين تميلان إلى العسلي، أما أطباعه وعقليته، فهي بلا شك جاءت من الجينات الشرقية التي ورثها عن أبيه، لكن إتسفيكا لم يعترف حتى بينه وبين نفسه أنّ له أيّ أصولٍ عربية، وقد انحاز منذ طفولته إلى جذور أُمِّهِ البولندية، وأعلن نفسه أشكنازيًا أصيلًا.

كان إتسفيكا يجبر رونيت أن تُعِدّ "الجيفيلتي فش" وهو السمك البارد الذي يفتتح به الأشكناز وجبة ليلة السبت، ولم يقبل يومًا أن تطبخَ له سمكة "أميرة النيل" الساخنة كما يفعل يهود السفارديم "الشرقيين"، وفي كل أسبوع تُرمى "الجيفيلتي فش" في القمامة لأنه لا يأكلها، فيسمع كل أهل الحي صوت شجارهما حول المائدة.





دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان، الأردن / رام الله، فلسطين
Email: shorokpu@gmail.com
shorokpr@palenet.com
www.shorok.com

نُصّ أشكِنازي

رواية

عارف الحُسيني

الشروق
2024

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2024/3/1631)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:
عنوان الكتاب: نص أشكنازي
تأليف: حسيني، عارف فاروق سعد الدين
بيانات النشر: عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2024
الوصف المادي: 156 صفحة
رقم التصنيف: 813.03
الواصفات: /الروايات العربية//الأدب العربي//العصر الحديث/
الطبعة: الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية.

ISBN 978-9957-00-908-3

نص أشكنازي

عارف الحسيني

لوحة الغلاف: الفنان التشكيلي الفلسطيني سليمان منصور

التحرير والتنقيح اللغوي: الأستاذ عبد الله اللحلوح

الطبعة العربية الأولى: الاصدار الأول 2024

الإخراج الداخلي: دائرة الإنتاج / دارالشروق للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة ©

دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618190/ 4618191
ص.ب :926463 الرمز البريدي :11118 عمان - الاردن
Email: shorokpub@gmail.com
دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله - المصيون : نهاية شارع مستشفى رام الله
هاتف 2975633-2991614-2975632 فاكس 02/2965319
Email : shorokpr@palnet.com

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال من دون إذن خطّي مسبق من الناشر.
All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

الإهداء

إلى القدس "أهلي"، وإلى غزة "ضمير العالم"

وإلى زوجتي الحبيبة روان، بركانيَ الثائر وميناءيَ الهادئ

الفصل الأول:

المستوطنة

إتسڤيكا 1: يِهوديْ لو
ميغَاريش يِهوديْ!

"يهودي لا يطرد يهودي"

صَعَدَتْ بنا سيَّارَةُ السّوبارو البيضاءُ إلى أعلى التَّلَّة في شارعٍ ضَيِّقٍ ومُلْتَوٍ، التَفَّ إلعاد سائقُ جيشِ الدِّفاعِ السَّابقُ بتَهَوُّرٍ ممزوجٍ بالتَّوتُّر، كانَ المنعطفُ حادًّا جدًّا، وعلى يمينه وادٍ سَحيقٌ وطريقٌ فرعيةٌ تَصِلُ إلى قريةٍ يسكنُ فيها بعضُ الفلسطينيّين، على جانب الطريق، وبعد المنعطف تمامًا قفزتْ أمام أعينِ النَّاظرِ يافطةٌ حمراءُ مكتوبٌ عليها بالأبيضِ وبثلاثِ لُغات: «ممنوع دخول الإسرائيليين لمنطقة «أ- A» هي تحت سيطرة السلطة الفلسطينية»، ومنذُ متى يوجد للفلسطينيّين مناطقُ يسيطرون عليها؟ تمتَمَتْ زوجتي رونيت دونَ أن ينتبهَ لكلامها أحَدٌ، ولرُبَّما لم يخرُجْ صوتٌ منْ حَلْقِها، بل بقيَتْ تَلوكُ الكلمات: كُلُّها أرْضُ إسرائيل، وكُلُّ هذا الهراءِ بالحُكْمِ الذاتيِّ الفلسطينيِّ لم يَكُنْ إلّا لُعْبَةً انْقلَبَ فيها السِّحْرُ على السَّاحر!

واصلَ إلعاد التَّقَدُّمَ إلى أعلى التَّلَّة، سَيّارتُنا كَحاوية قُمامة متحركة، تُغَطّيها القَذارةُ منْ كُلِّ جانب، غبارٌ وأتربَةٌ وبقايا طعامٍ وعصيٌّ مُثلَّجاتٍ الأولاد في الداخل، على زجاجها الخَلْفيِّ أقَلُّ من عشرةِ ملصقاتٍ بقليلٍ تُعيقُ النَّظَرَ والسياقة، الملصقُ المثيرُ لأعلى درَجاتِ الحرارة في قلبي «يهودي لو مغريّش يهودي» أي يهودي لا يطرد يهودي، رُبَّما لأنَّ ذاكرتَهُ الأليمةَ مع الشَّريط البرتقاليِّ الذي مازال مربوطًا بإحكام على هَوائيِّ (أنتين) السيارة لا تُبارحُ ذاكرتي، أخرَجونا من غَزَّةَ، ويُحاولُ هؤلاءِ السّاسةُ الذين ننتخبُهم أن يزيدوا أعدادَنا ويُقَلِّصوا صلاحيّاتنا وأحلامَنا. أصبَحَتْ قريةُ الفلسطينيّينَ خلْفَنا في أسفلِ الوادي، نَظَرْتُ إلى سائقنا الشُّجاع، والذي عاد أدراجه إلى الدّين والتديُّن مُؤَخّرًا؛ فأطلق لحَيَتَهُ ولم يعدْ يحلق سالفَيْه التزامًا بتعليمات التَّوْراة في الآية التي تنصُّ على:

«لا تمسَّ جانب رأسك ولا تضُرَّ لحيتك» (سِفر اللاويين -تعاليم الأحبار- فصل 19، آية 27).

تركَ المَعاصي خَلْفَهُ، وأخذَ ما يلزمُهُ من علْمي ومَعْرِفَتي وبَرَكاتي ليكون مُتديِّنًا وطنيًّا أصيلًا، فاعتمر الكيباه السروغاه «طاقية المتديِّنين الوطنيين» ولم يخلف موعدَ صلاة من يومها، طلبتُ منه أن يتمهَّلَ قليلًا، ويقفَ لنسترقَ بعضَ الدقائقِ نؤدّي فيها صلاةَ الصباح، نظر إليَّ باستغرابٍ، وقال:

- هنا يا إتسڤيكا؟

فأجبته:

إنْ لم نُصَلِّ هنا بالقربِ من «بيت إيل» أهمّ مُدُنِ مملكة إسرائيلَ الأولى، أين نصلّي إذن؟! في حانات تل أبيب الفاسقة؟ عليك التخلُّص من ماضيك العلماني الأسود، وإلا لن يأخذَ الرَّبُّ بيَدِكَ يا إلعاد.

احمرّ وَجْهُهُ، وكُنْتُ أقسو عليه عن قَصْدٍ حتى لا يجرُؤ يومًا على الحنين لماضيه الكافر، خفّفَ السرعةَ حتى توقَّفَ في زاوية آمنة من الشّارع، تَرَجَّلْنا نحن الأربعة للصلاة الصباحية؛ أنا وزوجتي رونيت وجارنا يوناتان الملقب بـ «يوناتان هاكاطان» أي الصغير لقَصَر قامته وامتداد كَرْشه أمامه، وإلعاد السائق. كُنّا أمام جبال يهودا والسّامرة، أو ما نسمِّيهم منذُ سنوات بـ «شطحيم» أي المناطق التي يسكنها الفلسطينيّون، وبالرغم من أن نِصابَ الصلاة عشرةُ رجالٍ من بني إسرائيل إلا أن انتظار سبعة من اليهود الصالحين لاكتمال النِّصاب في هذا المفترق هي مخاطرة غير مضمونة العواقب! تأكدتُ من أن ثلاثتنا أخذَ سلاحَهُ معَهُ من السيارة، وأن جميع الأسلحة على أهبة الاستعداد تحَسُّبًا من هجومِ المُخرِّبين، ومع ذلك نظرتُ إلى إلعاد ويوناتان وقلت لهما:

- فلنُسرعْ بالصلاة لنُكملَ دربَنا إلى قلعتنا الجديدة التي ترغب الحكومة العاصية باقتلاع تلاميذنا وأبنائنا منها أعلى هذه التلّة.

أشاروا إليَّ بحركة رأسهم أنهم يُوافقونَني الرأي، فنظرت إلى رونيت التي ترجلت هي أيضًا لتستنشقَ الهواءَ، وطلبْتُ منها أن تجلسَ في السيارة لتلاوة الصلوات الخاصة بها في صلاة النساء، أخرجْنا من صندوقِ السوبارو أغطيةَ الرأس الخاصة بالصلاة «الطالّيت» أي الطليس، وهي كلمة قالوا لنا بالمدرسة الدينية «اليشيفاه» التي قبلوني بها بعد زواجي مباشرة أنها عربية الأصل، وتعني المعطف، وما زلتُ أذكرُ امتعاضَ زملائي المتديّنين الجدد من هذه الحقيقة! لأنه جرت العادة أن يكون الوافدُ إلى الدين، والمتمسك فجأة بالصهيونية أكثر تطرفًا، وعداوته للعرب أشدّ من غيره، ولكنّي كنت أكثر وعيًا منهم، وأدركُ تمامًا دوافعي لأكون بينهم، كَبَتُّ فرحتي الداخلية التي هبّت من بين ضلوعي، وأغلقتُ على شعوري بالسعادة الجمّة، حيث إنَّه ولأول مَرَّة منذ دخلت المدرسة الدينية لأشكيناز سويسرا، يكون للُغَة والدي الأصلية مكان في اليهودية، وأنَّ اليهود الشرقيين ليسوا «زيادة عدد» في دولة إسرائيل. فقد أمضيْتُ حياتي متنكرًا لأصل أبي العربي العراقي، وكنت أتجاهل ذلك الحديث أمام الناس - وطبعًا سأبقى كذلك- كنت أخجل من حَرْفَي الحاء والعين في حديث أبي للعبرية بلهجة شرقية، وعندما ذكر الحاخام اسمَ الطَّليس بدا على وجهي السَّرَحان، فقد كنت كلما شَتَّ تفكيري عن الدرس أفتح فمي بدون أن أنتبه، وتذبلُ عيناي، فتوبِّخُني أُمّيَ، وتَلْعَنُ الجينات العراقيةَ التي ورثتُها عن أبي، نظرَ إليَّ الحاخامُ، وأشارَ لِمَنْ يجلسُ بجانبي أن يوقظني من أفكاري التي أخفيها خوفًا من أن تكونَ أفكارًا فاسقةً كما كان يظنّ، فعدْتُ سريعًا إلى نصفي الذي أعتدُّ به، ويبطل ما دونه النصف الأشكنازي الأبيض؛ لأنَّ مَنْ أُمُّهُ أشكنازية فهو

كذلك! وسرعان ما نجحتُ بتجاهلِ ذلك الشعورِ الطارئ بالفخر بأبي ولغته.

وكنت قد شاركت مؤخرًا جارنا يوناتان الصغير في إنشاء مصنع، أو كما أحبّ أن أتواضع في تسميته «ورشة عمل» - من خلف ظهر رونيت- لتدرَّ لي وله بالدخل السِّرِّيِّ بدون أن نصرِّحَ للضرائب، ولا أن يعرف عنها أحد، قمنا بشراء القماش الصوفي من حبرون «مدينة الخليل»، وسوف يكون مقصوصًا كما نريد، وجاهزًا لنضيف عليه لمستنا الأخيرة، ونبيعه بأضعاف السعر للمتدينين اليهود، خاصة من القادمين الجدد، وظفنا بعض الأثيوبيين «الأحباش» من يهود الفلاشا الذين لا يعرفون العبرية جيدًا، ولا يُجدون عملًا في أورشاليم، وذلك أيضًا حتى يكون المنتج يهوديًّا أمام الزبائن، استأجرنا لهم حانوتًا صغيرًا في حيّ «معلوت دفناه» أي مرتفعات دفناه، كونه مقابلَ حيِّ الشيخ جراح حيث نستوطن، ولأستطيع تفقد العمل متى أشاء، وكي أذهب سيرًا على الأقدام بدون أن تنتبه زوجتي رونيت لذلك، وعندها تجبرني على إدخالها إلى المصنع كشريك بالأرباح فقط. يعمل عمال الفلاشا على تثبيت الحبال الأربعة المطلوبة في أطراف الطالّيت، ويُجَدِّلونها لتتدلى حسب الأصول تحقيقًا لوصية الرب، وسريعًا تطورت الأعمال لنطلب من العرب في حبرون أن ينتجوا لنا الطالّيت الصغيرة مع فتحة للرأس لنبيعها للمتشددين دينيًّا، ليلبسوها على أنها «تسيتسيت» تحت القميص الأبيض، ويبقوا فيها طيلة ساعات النهار، وليس فقط في أوقات الصلاة، لقد أصرَّ يوناتان دومًا أن يحمل في صندوق السوبارو عددًا لا بأس به من بضاعتنا، لربما يحتاجها زبون طيّار يكمل لنا نصاب الصلاة أينما نكون، ولا يحمل معه الطالّيت الخاصة به، فنبيعه واحدة بالسعر الذي نريد! وكنت أنا أجادله دومًا:

- يوناتان، لا تكن صغيرًا بعقلك أيضًا، ليس في كل مكان نعمل بيزنس»!

كيف سينظر لي شباب التلال حين أكون قائدًا وطنيًّا وتاجرًا متجوِّلًا في نفس الوقت؟ «تتبابيش لخا» استحي من نفسك!

فيرد عليَّ بجوابه المباشر الذي لا يغيِّرُهُ أَبَدًا:

- إتسفيكا، ماذا ستستفيد إن كنت قائدًا وطنيًّا بدون مال! سوف يمسحونك بنعال الدّيمقراطية ليتخلصوا منكَ متى يريدون، لن يَحميَك إلا جيبُك!

رفعَ كُلُّ واحد فينا خيمتَهُ فوق رأسه، قرأنا الصلوات، واختَتَمْنا بالأدعية التي تقرِّبُنا إلى تحقيق حلم إسرائيل، وللأسف لم ينضمَّ لنا أيُّ عابر غريب، ولم نبعْ أيَّ طالِيّيت، أنهيتُ الصلاةَ بحمْد الرَّبِّ على أنَّهُ لم يخلقْني عَبْدًا، أو غويّ «من الأغيار» غير اليهود، ونظرتُ إلى رونيت بطرف عيني ودعَوْتُ:

- «مبارك أنت ربّي ملك العالم؛ لأنك لم تخلقْني امرأة.»

أنهينا الصلاة وعدنا بتأهُّب وحذَر إلى السيارة، كانت زوجتي رونيت في دعائها الأخير تقول بخشوع مُفْبَرَك: «مبارك أنت أيُّها الرَّبُّ لأنك خلقتني كما تريد». ولكن لم تكن رونيت كما تمنيتُ أنا أن تكون زوجتي أبَدًا. قصة زواجنا تطول، فعندما تعرَّفْتُ إلى رونيت عَبْرَ منظومة «الشيدوخيم» وهي خطبةُ الشباب المتدينين للبنات المتديّنات من خلال وسيط رسميٍّ، لتحقيق التعارف حسب تعليمات اتحاد الحاخامات، ومن ثمَّ الاتفاق على شروط الزواج بين العائلتين، كانت رونيت مثالًا للفتاة المحافظة التي تُخَبِّئُ جمالَها بقناع السُّكوت والخَجَل، اتَّفَقْنا من خلال الوسيط طبعًا أن نلتقيَ على المقعد الخشبي في الشارع الخلفيِّ لبيت أهلها في منطقة هار نوف وهي «دير ياسين» حسب ما كان يسميها العرب قبلَ حرب تحرير أرض إسرائيل، جلست أنتظرها أكثرَ من نصف ساعة

حتى جاءت مع أختها الصغيرة التي جلست مقابلنا، ومن الواضح أنَّ هناك مَنْ أَوْكَلَ لأختها الصغيرة مَهَمَّةَ المراقبة، كانت تلبس فستانًا ورديًّا وجواربَ بُنِّيَةً سَميكة، طولُها متوسطٌ، وشعرُها أشقرُ خفيف، وجْهُها أبيضُ ناصعٌ كبياض الثلج، وتحت عَيْنَيْها الخضراوَيْن الصَّغيرتَيْن بعضُ النَّمَش الأشكنازي المعروف، أنفُها مرفوعٌ ومُدَبَّبٌ، ولا يوجد بجَسَدها أيُّ معالمَ أو تضاريسَ، وكانت كما قالت أمّي رحمها الله «شطوحاه» أي جسدها مستو كالمسطرة! لم يعجبْني فيها أيُّ شيء، وبالذات رائحتُها التي كانت تهبُّ عَلَيَّ بالرغم من المتر والعشرين سنتيمتر بيننا، ولكنها كانت العروس الأشكنازية الوحيدة التي قَبِلَتْ بي رغم أنّني هجينٌ، ولستُ أشكنازيًّا خالصًا من جهة الأب والأم، تزوَّجتها سريعًا قبل أن تُغيِّرَ رأيها لأيِّ سبب كان، وأنجبت منها خمسة أطفال دون أن أدري كيف حصل ذلك! وفي بداية حياتنا معًا كانت رونيت تشعرُ دوْمًا أنَّهُ من الممكن أن أتركَها وأهربَ، فقرَّرَتْ هي أن تستندَ إلى حقيقة أنني رجلٌ «ذكر» ولديَّ رغبات! وكوني مُتَدَيِّنًا مُؤْمِنًا فلن أخالف التعليمات الدينية، ولن أستخدمَ أيَّ موانعَ للحَمْلِ، ولن أطلبَ منها أن تقومَ هي بذلك، وهكذا في أغلب المرات التي مارست فيها حقوقي الزوجية معها انتهت المغامرة بطفل جديد، ومع وجود الأطفال الخمسة، بَقِيَتْ تُراوِدُني أفكارٌ غريبةٌ حول الهَرَبِ منها والطلاق إنْ أمكن، ولكن في مرحلة ما حصلَ ما حصلَ، ولم يعد هناك أيَّةُ إمكانية إلا أنْ تبقى إلى يميني حتى نهاية العمر، فمصيرنا ارتبط بِسِرِّ المغارة.

صعدنا إلى السيارة لنواصل دربنا ونحن نشعر بالقلق كسحابة داكنة اللون تحوم فوق رؤوسنا، واصل إلعاد سياقته الحذرة، ومُسدَّسُهُ في متناول يَده كما نحن جميعًا، بدأتْ أشعةُ الشمس تمسحُ وجوهَنا ببطء، وَكأنَّها يدُ الله تتلمس بَشَرَتَنا، وتُسَخِّنُ قلوبَنا وتعمرها بحبِّ إسرائيل

الأمة، ويهودا الوطن، خيّمَ الصَّمْتُ في قمرة السيارة المهترئة، الشارع الملتوي مازال طويلًا أمامنا، وبحركة لا إراديَّة، أطلقتُ يدي لتداعبَ زرَّ البحث عن محطات الراديو؛ لنكسر هيبة الصمت والخوف.

في البداية لم يلتقطْ راديو السيارة إلا محطَّةَ «جال جلاتس» موجةَ صوتِ الجيش، وهي محطةٌ بائسةٌ تنقلُ لنا أكاذيبَ السياسة، وتكتيكات جيش الدفاع الذي نحميه ولا يحمينا، ومع استمرار البحث خرجت لنا إذاعات المخربين العرب التي لا نفهم ما تقول، وليس لها معنًى سوى أنها تشوِّشُ بثَّ المحطات الدينيَّة اليهوديَّة، أزعجتني إحدى المحطات التي بثَّتْ أغاني حماسيَّةً نسمعُها عادةً تدوي في أعراس العرب، نظرتُ إلى جارِنا يونتان هكطان «الصغير» وقلت:

- العرب والقانون لا يسيرون معًا، هؤلاء هم العرب لا يحترمون أي قانون، يَبُثُّونَ بدون ترخيص، وهم كالشوكة في المؤخرة، لا نستطيع العيش معها، وإنْ أخرجْناها بالقوة، ومَرَّةً واحدةً لا نتمكَّنُ من الجلوس لفترة.

انقلب يونتان كالسلحفاة على ظهره من الضحك، وكنت قد دغدغتُ مشاعرَ الكُرْهِ والاستحقارِ لَدَيْه للعرب عن قصدٍ؛ لأنني أنتظرُ ضحكتَهُ الصَّاخبةَ كضجيجِ برميلِ بارودٍ ينفجر.

خدم يوناتان بالجيش بوظيفة طبّاخ، وكان مضطهدًا جدًّا؛ لأنه رسب في امتحان اللياقة، عندما طهَّرَهُ والداه أخذاه إلى حاخام كبير السِّنِّ من اليهود السفارديم «الشرقيين» يداه ترتجفان وعدّتُهُ باليَةٌ، فَلَمْ يُحْسِنْ طهورَهُ، والتهبَتْ أعضاؤُهُ التَّناسُلِيَّةُ، وشارف على الموت في المستشفى، ولم يُدرِكْ أحدٌ أنَّ هذه الحادثةَ سوف تُغيِّرُ مسارَ حياته، فتدَنَّتْ علاماتُ لياقته البدنيَّة لمروره بعمليَّة جراحيَّة فاشلة أولَ حياته حسب تقرير اللجنةِ الطبيةِ الخاصة بدائرة التجنيد الإجباريِّ في جيش الدفاع، أدخلوه

مطبخ المعسكر مغلوبًا على أمره بعد أن كان يحلم بقَبولِه في الوحدة المقاتلة «جولاني»، انتهى به الأمر يُطْعِمُ المُجنَّدين قبل خروجهم للحواجز يراقبون العرب وهم يمرون أمامهم، وهناك والحمد للرَّبِّ وَجَدَ ضالَّتَه، فرفع حول نفسه كثبانًا عاليةً من الكراهية للعدوِّ الشرعيِّ، لينسى قهرَهُ من الجيش والزَّجِّ به في المطبخ طيلةَ سنوات خدمته الإجبارية الثلاث، وبقيَ هناك يُقَشِّرُ البطاطا والبصل والثوم.

واصلتُ البحثَ بين المحطات عما يمكن سماعُهُ لتبديد الخوف المخفيِّ بيننا، حتى صرختْ رونيت وأذهلَتْ رجالَ السيارة:

- عتسور عتسور، توقف توقف على هذه المحطة.

إنها إذاعة «ليف همدينا» أيْ قلب المدينة، وفيها برنامج الحاخام «حاييم فوكس» الذي يحلُّ مشاكلَ الناس بالتوراة والعلاج الروحي، أصغيْنا جميعًا، لهفةُ رونيت كانت واضحةً جدًّا، أمّا أنا وباقي الأصدقاء، فقد كُنّا نخفي تَلَهُّفَنا حرصًا على استتفاهنا الأزليِّ نحن الرجال لهذه الخرافات، أطرقَتْ رونيت أُذُنَيْها ومَدَّتْ رأسَها من المقعد الخلفيِّ لعشقها صوتَ الحاخام فوكس وحكمتَه - كما تقول-، وبالرغم من أنَّهُ ليس أشكنازيًّا مثلها إلا أنها اعتقدت أنَّ لديه قدراتٍ توراتيَّةً مقطوعةَ النظيرِ، وأنه صِدّيقٌ كبير.

استرسلَ الحاخام فوكس وهو يردُّ على سيِّدَة علمانية اتَّصلتْ به على الهواء مباشرة، لتتأكَّدَ إن كان ابنُها يصلحُ للزواج من ابنة بنت حماها! وكان هذا الموضوعُ الأقربُ إلى قلب رونيت، فأسكتَتْ كلَّ مَنْ بالسيارة بما فيهم أنا زوجها، وجارُنا يوناتان الصَّغيرُ الذي لم تُكنَّ له أيَّةَ مشاعر مودة، وكادت ترمينا من السيارة لو واصَلْنا الحديثَ بالسياسة أو الأوضاع أو غيرها، بدأ رَدُّ الحاخام فوكس على السيدة من مدينة هرتسليا ولم ينتهِ، فتحَ بالتوراة، ولكنَّهُ وكما يبدو لم يجد شيئًا يستندُ إليْه

لإرْضائِها، فانقَطَعَ الخطُّ بدون سابق إنذار، واستقبل فورًا مكالمةً أُخرى:

- ألو تفضل، من أنت؟

- أنا من مستوطنة أريئيل، وأودُّ أن أتأكَّدَ مِنْ أَمْرٍ ما أيُّها الحاخام فوكس.

كان يبدو على المتصل الهمُّ والكَرْبُ، يتحدثُ بصوت يرتعش، مضطربًا لاهثًا، لم يُعَقِّبِ الحاخامُ على أنَّ المُتَّصلَ يسكنُ في أكبر المستوطنات في الضفة الغربيَّة بجانب مدينة نابلس، وفيها جامعةٌ فُتِحَت وتمَّ الاعترافُ بها بداية سنوات الألفين، ردَّ الحاخام فوكس قائلًا:

- إنْ كنتَ تعرف وتبحث عمَّن يؤكِّدُ المعرفةَ فلستُ عنوانك، أمَّا إن كُنتَ تؤمنُ بدين الله وشعبه المختار وتبحث عن رأي الرَّبّ فتفضل!

سكت الرجل بضعَ لحظات، وَكأَنَّهُ يستجمعُ قوَّتَهُ، سادَ الصَّمتُ فجأةً بدون أن تطلبَ منا رونيت ذلك، لكنَّها وضعت يدها على خدِّها ورفعت حاجبَيْها حتى لامسا غُرَّةَ شَعْرِ باروكة الرَّأس التي تضعُها فوقَ رأسها بعد أن حلقت شعرَها يوم زواجِنا حَسَبَ تعاليم التّلمود والهلاخاة (سيرة الصديقين)، نظرت باهتمام شديد إلى الرادَيو، قال الرجل:

- هل يسمح الرَّبُّ بأن أبيعَ مرض ابني لِغوي؟ صمت الرَّجُلُ وسكتَ الحاخام وأسهب بعدها:

- ابني عمره عشر سنوات، أصيب بمرض السرطان (بدأت رونيت بالبكاء الصامت وبرفع شعر الباروكة عن جبينها)، سمعتُ أنهُ إذا أحضرتُ غوي (من الأغيار - غير اليهود) ودفعت له مالًا ليأخذ مرض ابني وقَبِل هو بذلك، فإنَّ هذا الغوي «كافر السبت» الذي وُجد لخدمتنا سوف يحمل المرض ويشفى الولد، هل هذه الخدمة الممكنة!

تردد الحاخام حاييم فوكس، عَلَّهُ أصعبُ سؤالٍ يستقبلُهُ على الهواء،

ولو كان قد طُرِحَ في غرفة مُغلقَة لما تردَّدَ بالإجابة بالإيجاب، ولكن الوضع مختلف أمام آلاف المستمعين الآن، وما حصل بالسيارة في تلك اللحظات وقبل الإجابة كان الأهم، صرخت رونيت:

- ليَبِعْهُ المرض لعزازيل «عليه اللعنة»

بصراحة استفزَّني صراخُها، ولستُ هنا نصيرَ الفقراء و«الميعوطيم» الأقليات، كما تسمّي الدولةُ العربَ، ولكنْ أيضًا صرختُها هذه أمام إلعاد ويوناتان لم تكن بمكانها، خاصة وأن مكانتي تتقدم في أوساط مجلس إدارة مستوطنات يهودا والسّامرة «ييشع»، والصّراع مع الفلسطينيّين أصبَح الآن على أشدِّه، فلا يمكن أن يخرجَ من فَم زوجتي تصريحٌ عنصريٌّ إلى هذه الدرجة!

رميتها بنظرة مستاءة، ابتسم إلعاد السائق، وبدأ يوناتان بنفاقه المعتاد مع كل امرأة حتى لو كانت رونيت جارته وزوجتي التي تكرهه:

- رونيت «نيشاماه» يا روحي، احمدي الرَّبّ أنهُ خَلَقَ الغوييم ليحملوا عنّا البلاءَ. أنت تعلمين أنهُ بحسب ما يقول الحاخامات، اليهود نور للغوييم (الأغيار) وأننا كما المنارة في محيطهم المظلم.

طَبْطَبَ على كتفها، وهدَّأَ من روعِها، فسكتَتْ، وَكأَنَّها اقتنعت بما قال، فردت عليه بصوت حزين:

- يوناتان، لن أنسى تعليمات الحاخام كوك، فالمستوطنات واقتلاع الغوييم من حولنا يسرِّعُ مجيء المسيح المنتظر!

بقيتُ أنا أغلي من الداخل، صامتًا من الخارج كي لا أنفجر، علَّ الحاخام فوكس يعيد الأمور إلى حيِّزِ المنطق.

وبعد طول انتظار وتأمل، رَدَّ الحاخام عبر الراديو:

- اسمع أيُّها الرجل الطيب، شاء الله أن نكون شعبَهُ الذي يحمل رسالته للعالم، وأن يكون هناك غوييم يخدموننا، ولكنَّ المرض هو من عند الرَّبِّ، والشفاء من عند الرَّبّ، فإنْ أردْتَ مَنْحَ الغوي مالًا فليَكُنْ قليلًا جدًّا حتى يتعالج به إنْ أصابَهُ مرضُ ابنك، وإنْ لم يَقْبَلِ الرَّبُّ هذا القربانَ فإنَّكَ لن تكون قد خَسِرْتَ كثيرًا.

شَكَرَ الرَّجُلُ الحاخام، وقد سمع ما يُرضيه، ولكنَّ ذلك لم يُرْضِ رونيت أبَدًا، فقالت باستفزاز:

- لو يسألني هذا الرجل المسكين، لأرسلْتُهُ إلى حوريَّة ونبيه جيران السُّوء ليُهديَهم مرضَ ابنِه، وأدفعُ أنا له ولهم.

لم يردَّ أحدٌ على رونيت، وبحثَ كلُّ واحد فينا عن زاوية مختلفة داخل السيارة أو خارجها، لينظر إليها ويبتعد عن النقاش، نظرتُ أنا إلى الخارج، وكُنّا في أولِ الشتاء، وحفيف أوراق الأشجار المزروعة على جانبي الطريق المؤدية إلى المستوطنة الجديدة يَطنُّ في آذاننا كأنَّهُ تراتيل سِفْرِ التكوين في التوراة، « لقد أعدنا الحياة لأرْض إسرائيل» تمتمت بخشوع، فقد كان اعتقادي السابق كما هو إيمانُ أغلبِ المستوطنين المعتدلين اليوم، أننا عُدنا إلى أرْضِ إسرائيل التي سادها الخراب والمَحْلُ بسبب إهمال مَنْ سَكَنَها غيرنا، وها نحن نعيد اللون الأخضر إليها.

فُتحت البوابة الصفراء الكبيرة إلكترونيًّا بعد أن تمكن النظام المحوسب من التعرف إلى رقم السوبارو خاصَّتَنا، وفي كلِّ مدخل مستوطنة يوجد بوابة صفراء كهذه، وكأنَّها صخرةٌ تتحطَّمُ أمامها أحلامُ هؤلاء البدو رعاة المواشي بالدخول إلى المستوطنة لأي سبب كان.

ألقينا التحية على عوفر ضابط أمن المستوطنة، وهو يحضن مدفأته الكهربائية ويضع شالًا على كتفيه، هنا تذكرت حوريَّة زوجة نبيه زميل

رونيت السابق في شركة توزيع الجرائد، جيراننا في الشيخ جرّاح في أورشاليم، والتي كانت تسقي ورود حديقتهم المجاورة لنا كل يوم، وشالها بنفس ألوان شال عوفر، يحيط جسدها وينسدل شعرها الأسود الناعم فوقه، أناديها فلا تسمعني، ولا تعيرني أيَّ اهتمام، ولكنّ ليس لأنها لا تسمعُ جيّدًا مثلَ عوفر الذي أصمَّهُ دويُّ قَصْفِ غَزَّةَ في حرب العام 2014م وفَقَدَ جُزءًا من سمعه وحرارة جسده بقصة طريفة سأرويها لاحقًا لأحفادي، لقد أصابه مرض برودة العظام بعد انتهاء الحرب (كما يروي)، لا أدري إن كان هذا المرض حقيقيًّا أم مُجرَّدَ خُرافة كخرافات الحاخام فوكس المدويّة في السيارة منذ دقائق، وبعد أن أصبَحَ «معاقَ حَرْبٍ» فَهِمَ أنَّ دولةَ اليهود هنا في يهودا والسّامرة، فانتقل للعمل والحياة هنا ببيتٍ فسيحٍ مع بِرْكَةِ سباحة، ما كان ليحلم بربعه لو بقي في تل أبيب.

وصلنا ساحة المستوطنة والجماهير الغفيرة كانت بالانتظار لتسمع ما لَدَيَّ لأقوله، حضّرْتُ نفسي، التقطت الطاقيَّةَ السوداء لأضعها على رأسي، وترجلنا من السيارة كالأبطال.

الفصل الثاني:

خاوا

نبيه 1: اللّي إلك.. إلك. واللّي
مش إلَك محرّم عليكْ

كـرَّرَتْ أُمّـي -الخيّاطـة البسـيطة- هـذا المثـل الشـعبي أمامـي آلاف المرات، لم تسعفها الحكمة لاختصار كلماته ليكون أكثر سلاسةً على الأذن، وأنا لم أتعلم منه الكثير بسبب رغبتي الجمّة طيلة فترة شبابي بمناكفة القدر! وُلِدْتُ بمُحاذاة الْقَبْرِ الذي كان يتوسط حديقةَ بيتنا المقدسي العريق، وكان من أوائل البيوت التي بُنِيَتْ خارج أسوار البلدة القديمة بعد انتهاء حربِ القرم عام 1856م بين الإمبراطورية الروسية والعثمانية، وقد بدأ بعدها مباشرة السماح للدول التي ساندت العثمانيين مثل فرنسا وبريطانيا بالتملك في القدس، والحصول على الأراضي لبناء مقرات للإرساليات، سواء الدينيَّة أو التعليمية أو حتى السياسية، حتى سيطرت الكنائس والإرساليات الأوروبية على أكثر من 45 % من مساحة القدس في حينه، ومنذ ذلك الوقت أصبَح البناء خارج البلدة القديمة مقبولاً وآمنًا بعض الشيء.

كان جَدُّ جَدّي لأبي من أوائل أولئك المقدسيين الأرستقراطيين الذين يبحثون عن الحداثة والتطور، ويحلم بعَرَبَته الخاصة التي تجرُّها الجياد العَرَبيَّة الأصيلة بعيدًا عن الشراكة العائلية، حاصَصَ إخوته في «الحوش» الذي تملكه العائلة في البلدة القديمة وأخَذَ حصَّتَهُ، اشترى قطعةَ أرضٍ في منطقة بعيدة عن السّور من جهة بابِ السّاهرة، وبنى بيتَهُ الذي وُلِدْتُ أنا فيه، وقد أصَرَّ جَدُّ جَدّي لأبي أن يُدفَنَ بجانبِ أساساته، وربَّما قد بنى الْقَبْرَ لنَفْسه قبل إتمام أعمال بناء البيت؛ ليضمنَ منزلَهُ الأخيرَ في عرينه، نُقِشَتْ على شاهدِ الْقَبْرِ أبياتٌ من الشِّعْرِ يَصِفُ بها أمجادَ العائلة العَريقة، ومنها بعضُ أشعارِ ابْنِ عنين الشاعر الأيوبي، وما زلْتُ أحفظُها، يقول:

«يـا بُـنَ الكـرام الأوليـ ـنَ السـابقينَ إلى المَكارِم
الأولـينَ إلى الوَغـى وَالآخِريـنَ إلى الغَنائِـم»

لم يهتَمَّ أيٌّ من الأجيالِ المُتلاحقَة التي سَكَنَت البيتَ لما كُتب قبلَ أكثرَ من مئة وخمسين عامًا، واستخدَمْنا بوقاحة مقطوعة النَّظير ذلك الْقَبْرَ منْضَدَةً لقَشْر البرتقال في الأيّام المُشمسَة، كُنّا نتحلّقُ حَوْلَ الضَّريح متناسين تمامًا أنَّهُ قَبْرٌ لجدٍّ مَيِّت، رُبَّما لأنَّنا وُلِدنا بعدَهُ، أو هيَ عادةُ العائلة ألّا تُبَجِّلَ أمواتَها الساكنينَ منازلَها، نضحكُ ونلعبُ ونتسامرُ ونقشّرُ البرتقالَ ونأكلُهُ لنَفْرَحَ في أوقات تلاعبُ الشمسُ فيها أرواحَنا المُحلِّقةَ فوقَ الرّوح التي تسكنُ ذلك اللحدَ الصّامدَ، نتركُ القشْرَ خلفَنا ليَشْتَمَّ رائحتَهُ الميِّتُ المدفونُ في جوف الأرض.

عُدْتُ اليوم بعد سنوات كثيرة رفقةَ زوجتي حوريَّةَ إلى مكان الْقَبْر أو «منْضَدَة البرتقال»، كأن هو اليوم الذي فَرَضَ الاحتلالُ فيه على العائلة هَدْمَ الصّالون الذي بَنَتْهُ زوجةُ عَمّي الراحلةُ فوق موقع الْقَبْر، وإلا تعرَّضْنا جميعًا للحبْس والغرامة، وكانت هذه سياسةٌ جديدةٌ ابتكرَها الاحتلالُ لقهر أهْل القدس، فقد كانوا في الماضي يأتون بجرَّافاتهم لهَدْم بيوتنا أمامَ أعيُننا، أمّا اليومَ فيفرضون علينا هَدْمَ بيوتنا بأيدينا أمامَ أعيُنهم. حضَرَتْ وحدةُ مراقبة الهَدْم من بلديَّة الاحتلال، ومعها دوريةُ شرطة، وقوَّةُ حَرَس حدود، يراقبون ويَضحكون ويدخّنونَ السَّجائرَ حتّى أنهيْنا عَمَلَنا وجعلْنا من الصالون رُكامًا، تَجَمْهَرَ أهْلُ الحيِّ يتفرَّجونَ على الحفلة، وكما أصبَحَ الوضعُ في السَّنوات الماضية، ومنذ وَعَدَ الرئيسُ الأمريكيُّ (ترامب) إسرائيل بالقُدْس الكاملة عاصمةً لها، ووقوف العالم أجمع يتفرج، ورُبَّما بعضهم يستنكر باستحياء، زادت خيبةُ الأمل لدى المقدسيّين، وأصبَحَتِ الفردانيَّةُ في مواجهة الهموم الشَّخصيَّة هي عنوان

المرحلة، شاهَدَ الجميعُ ما حصل ولم يُحرِّكْ أَحَدٌ ساكنًا، ولا يمكنُ إلقاءُ اللوم على أَحَد طَبْعًا، فَلكُلِّ واحد من سُكان الحَيِّ قصَّتُهُ ومأساتُهُ.

كنتُ أتمنّى أن يبقى شاهدُ القَبْرِ مكانهُ، وألا تُقرِّرَ نعْمَةُ زوجةُ عمّي توسعةَ البيت التّاريخيِّ ببناء الصّالون؛ لأنَّ قَبْرَ بيتنا أقدمُ من دولة إسرائيل، ولأَنَّ بلديَّةَ الاحتلال لا تستطيعُ هَدْمَهُ بصفته مُرخَّصًا كمنشأة معماريَّة أثريَّة، أمّا الصالون الجديد فهو يخضع لقوانينهم في مَنْح رُخَص البناء، وهي تتلوَّنُ وتختلف حسب عرق من يطلب الرخصة، وقفت فوق الرُّكام مع زوجتي التي هَرَبْتُ إليها من كلِّ شيء، من القهر ومن الظلم، وهَرَبَتْ هي إليَّ أيضًا للأسباب ذاتها، كان إيمانُنا راسخًا بأنَّنا نستحقُّ! ليس لأني طَيِّبُ القلب ووديعٌ بائسٌ، بل لأنَّ مطحنةَ الحياة طَحَنَتْني لأُصْبَحَ غُبارًا ناعمًا يركن حُبَيباته في محطَّته الأخيرة فوق أنقاض صالون زوجة عَمّي ذي الكَنَب الخَمْرِيِّ المُزركش باللون الذهبيّ، وشبابيك من الألمنيوم الأخضر «صناعة إسرائيلية» نَخب أوَّل من نوع «كليل» الذي يباهي فيه من يُرَكِّبُهُ، وتصمِّمُ زوجةُ عمّي نعْمَة أنَّها أولى مَنْ رَكَّبَهُ في القدس العَرَبيَّة، وعلى تلك الشبابيك ستائرُ سكنيَّةٌ خيَّطتْها أُمّي بالمجّان، وأصبَحتِ الآنَ مدفونةً تحت الرُّكام.

ولبرهة من الزمن، والغبار والركام من حولي، غُصْتُ في جَدِّ جَدّي لأبي الذي مات وهو يحلم بأمجاد أبيات الشعر المطرّزة على شاهد قبره، وفي زوجة عَمّي الغريبة عن كل تلك الفلسفة الرومانسية، والتي فضّلت الصالونَ على قبر البرتقال، وتأمَّلتْ فينا وبذريَّتنا التي لا ترى في القدس إلّا الشعارات على مواقع التواصل الاجتماعي مثل الفيسبوك والأنستغرام والتيك توك ينشرون الصور والكلام المنمق بالإنجليزية أو «العربيزي» وهي الكلمات العَرَبيَّة بأحرف إنجليزية لتعبر عن الوفاء والحنين والأمجاد، وتخيلت كيف انتقم منّا الاحتلال وأعوانه بتعطيل

جميع المساعي الرامية لترخيص الصالون المخالف لقوانين البلدية، ولم يدَّخروا جهدًا حتى هدموه بأيدينا وأمام أعيننا إمعانًا بالقهر وإشهارًا للسيادة!

هدمنا البناء وغادرنا الركام، تركناه كما هو، أمسكت حوريَّة يدي اليمنى وهي تجلس بجانبي في السيارة صامتة كالأصنام، اغْرَوْرَقَتْ عيناي، ليس لأنهم هدموا الصالون وألحقوا الأذى بالبيت التاريخيّ، بل لأننا لم نسترجع الْقَبْرَ أيضًا، فلم نحافظْ على الماضي، ولم ننَعمْ بالحاضر! لم أستطع إخفاء الحزن أمام المحتلّ، وألمي على ضعفنا وانكسارنا على ذواتنا، حزنٌ مجرد من الغضب، أقود السيارة، ولا أعرف إلى أين! شرد عقلي فجأة إلى أمِّ نمر بائعة الكعك والفلافل وكولا Club، سوف أشتري منها طعامَ الفقر اليوميِّ في مدرستي الكائنة في قلب البلدة القديمة بالقدس، ستفتح شباك غرفة النوم التي تطلُّ على ساحة المدرسة، وتبيعنا الكعك والفلافل لمن سَئِمَ شوربة التكيّة التي كانت توزع بالمجّانِ على عابري السبيل. استمرت أمُّ نمر بعملها هذا لسنوات، وفي أحد الأيّام وبدون سابق إنذار دَهَمَتْ قواتُ الاحتلال الخاصة ومعهم مأمورو الضرائب ووزارة الصحة بيت أمِّ نمر وقت «العصرونة»، حيث كنا نتدافع في ساحة المدرسة للوصول إلى الشباك والنجاح بشراء الكعك والفلافل وعلبة الكولا، أغلقوا الشباك بالطوب والقصارة، واحتجزوا أمَّ نمر وعائلتها، وفرضوا عليهم المخالفات للضرائب والصحة بمبالغ لا يمكن تخيلها.

وفي منتصف ثورة الأفكار والدموع المحشورة بين العين والجفن، ودونَ تخطيط أو تدبير ساقتني مشاعر القهر إلى مخبز قديم أوَّلَ حَيِّ المُصرارة في القدس، فتوقفتُ صامتًا أنا وحوريَّة لنشتري كعكًا وفلافلَ وكولا بدون معاناة أو تدافع أو شباك غرفة نوم يطلُّ على باحة المدرسة، سألتها إن كانت تريد الأكل، لم تَرُدَّ عليَّ، ولم تنظرْ إلى ناحيتي أصلًا.

هل هذا الصمت كله بسبب خيبة أملها بي؟ فقد أخطأت وأقنعتها ذات يوم أني أستطيع أن أفعل كل شيء، وفي ممازحة قلدت مديري السابق «شؤول» في شركة توزيع الجرائد أيّام شبابي الأولى وقلت لها بالعبْريَّة « نبيه... هاكول يخول» يعني يستطيع فِعْلَ كُلِّ شيء! فهل فَهِمَت الآنَ أنَّها كانت من النوادر العبْريَّة المبالغ فيها، وهي مداعبةٌ من رَبِّ عَمَلٍ يرفعُ الحافزيَّةَ لدى «كافر السبت» الذي يخدمُهُ ليس أكثر! وأنَّها ليست جديةً أبَدًا!

أحضرتُ الكعكَ بالسّمسم رغم أنَّهُ يسبِّبُ ليَ الحزاز «الحرقة»، قسَمْتُ قطعةً لحوريَّةَ، قُدْنا السيارة ونحن نمضغُ وننظرُ بطرف أعْيُنِنا إلى بعضنا البعض بخجل، وكلٌّ منَا سارحٌ بأفكاره، حتى أيقظَتْ يدٌ صغيرةٌ مُتَّسخَةٌ سُباتي وهَوَسي بالْقَبْر وقشر البرتقال والصالون والركام وأم نمر والكعك وحوريَّة، نقَرَتْ زجاجَ نافذة السيارة وأنا أقف بالإشارة الضوئية الحمراء عند مفترق باب الأسباط، ومنه أتَّجهُ يمينًا إلى شارع السلطان سليمان وباب الساهرة، وإذا به طفلٌ لا يتجاوز العاشرة من العمر، كثيف الشعر، هزيل البنية، مقوَّس الظهر، ليس في وجهه أيَّةُ علامة أو دلالة على طفولة أو براءة، تجاهَلْتُهُ في البداية، فقد اعتدتُ على أطفال التَّسَوُّل، لكنَّهُ بقي يؤشِّرُ لي بيده ويصيح:

- افتح... بقولَّك افتح.

ارتبكت، وصراخه المتواصل أرعد فرائصي، وفي لحظة بدت وَكأنَّها الدهر كُلَّهُ. قلت لنفسي: «ما هو إلا طفل، تَجاهَلْه وحسب، وهي بضع ثوانٍ تنتهي وتفتح فيها الإشارة، فأتركه بحاله، ويتركني أكمل كعكتي والفلافل وعلبة الكولا».

لكنَّ اللحظة لم تنته، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أَرْضخُ لطلبه العنيف، هل هو إصراره؟ طفولته المشوهة؟ ضعفي الأبَديُّ أمام أطفال يحرثون

شقاء الشارع؟ هل هو وَهَنٌ جديدٌ جاءني بعد منتصف العمر؟ أم أنه صمت حوريَّة المطبق بجانبي... لم أعرف!

بكل حال قررت ألا أكون لطيفًا معه، ولأول مَرَّة لن أشتري ما يعرضه عليَّ من بضائعَ مسروقة أعطاهُ إيّاها مَنْ يُشَغِّلُه ويستغلُّ الحاجة:

- شو بدَّكْ؟ صرخْتُ به بلُؤْم.

رفع علبةَ المحارم التي بيده، رمى بها إلى داخل السيارة بقوة وقال:

- هات خمسة شيكل... أحسنلَكْ.

أربكني أكثر من الأول، ولم يترك لي ما أفعل أو أقول، بدون أيَّة كلمة أخرجت النقود من جيبي وناولته إياها، وعيني انكسرت وأصبَحت تنظر إلى الشارع البعيد وليس إلى وجهه، نظر إليَّ وابتسامة الانتصار على وجهه وقال:

- يلا روح... خاوا

خاوا... كم مؤلمة ومهينة هذه الكلمة، كدتُ أفتح باب السيارة وألحق بذلك الطفل غير البريء بسبب حياة هذه المدينة أو ظلمها، وأسحب لسانه من فمه، فتحت الإشارة ومشيت صاغرًا مقهورًا، وَكأَنَّهُ نفس شعور الركام والاحتلال مَرَّةً أخرى.

شَغَلَتْني هذه الحادثةُ لعَدَّة أَيّام بَعدَها، نَسيتُ فيها الهدم، غزَتْني الحكاياتُ والمواقفُ، وأخذَتْ تعصفُ بي يمينًا وشمالًا لتجيب عن سؤال سألَتْني إيَّاهُ حوريَّة بعد لحظات طويلة من صمتها في السيارة، وحتى بعد الخاوا التي دفعْناها لذلك الطفل الذي لم يبقَ من طفولته إلا قِصَرُ قامته، أخذَ الاحتلالُ منَا صالونَ المنزلِ عنوةً، وأخذ شابٌّ من الجيل الجديد من المقهورين على الإشارة الضوئية خمسةَ شواقلنا «خاوا»، يا لها من مفارقة! وقد جعلتُ عينيَّ تهربان منها، وكأنّني مشغول بالسياقة

ومعالم الطريق والبنايات، هو ذلك الخجلُ الشديدُ الذي يسيطر عليَّ، فأهربُ بتفكيري وباقي حواسّي إلى أيِّ شيءٍ تافهٍ أنشغلُ به، وأقنعُ مَنْ حولي بأنه مُهمٌّ لدرجة تعلو على الحادثة السابقة، وفي تلك اللحظات التي تمنيت أن تنشقَّ الأرضُ وتبلعَني، أصبَح لونُ خزّانات المياه على أسطح مباني القدس المكتوب عليها «إبراهيم أوريجينال» هو المهم، وحاولتُ مراوغًا أنْ ألوذَ إلى فلسفات فارغة مثل: لماذا لا نثقُ بشبكة الماء التي توفّرُها البلديةُ، وما زلنا نصمِّمُ على اقتناء خزّانات ماء سوداءَ تُشَوِّهُ أسطحَ المباني؟ وكيف لو فكّرْنا بمنطق وعلْم، وبالتالي نَجدُ أنَّ تلك الخزّاناتِ ما هي إلا تلوُّثٌ بصريٌّ يَحرمُ المدينةَ من جمالها العُلْويّ، وفي منتصف حديث اللاشيء هذا، قاطعَتْني حوريَّة مَرَّة ثانيةً، وسألَتْ:

- ليش صرنا هيك؟ ليش ما ضلّت مشكلتنا مع إسرائيل وبس!

- لقد خسرنا معًا معركة الصالون. وهل سنخسرُ الجيلَ الحاليَّ الذي نحلمُ أن يُحرِّرَهُ ويُحرِّرَنا؟

لم أجدْ ما أقولُهُ، فقررْتُ أنْ أتفلْسَفَ من جديد وأهربَ إلى قصة هوائيّات التِّلفاز «الأنتين» على أسطح البلدة القديمة، اعتقدتُ أنَّ ربْطَ جوابِ السؤالِ بقصة من الماضي يُضفي عُمْقًا وشرعيَّةً على جوابي الذي يجب ألا ينحدرَ عن مستوى سؤالها! رَوَيْتُ لها قصةَ أنتين باب حطّة بشغف، وبصوت رخيم يعكسُ نوعًا ما حكمةً ودَدْتُ أنْ تشعرَ حوريَّة بها، وبدون أي مقدمات قلت:

«خرجنا من الحارة أحملُ أنا صندوقَ العدَّة، قطّاعات وزرّاديّات ومفكّات ولوازمَ العمل، وتوجَّهْتُ مع المُعَلِّم (أبو طلعت) وهو يتمخْتَرُ كالدِّيكِ الرّوميِّ، يتقدَّمُني ببضع خطوات، ويُسَلِّمُ على فلان، ويتوقفُ ليتحدثَ مع الآخر، أرهقَني السَّيْرُ الطويلُ حتى بابِ السَّاهرة، ومنه دخَلْنا البلدةَ القديمةَ، وهناك مَرَرْنا بمحلٍّ يبيعُ هوائيّاتِ التِّلفازِ

«الأنتينات» وقد كانت هذه هي الموضةُ الرائجةُ في ذلك الوقت، والتي قضت عليها لاحقًا الأقمارُ الاصطناعيَّةُ وأجهزةُ «الرسيفر»، كان أهْل القدس يحجزون المواعيد المسبقةَ لنُرَكِّبَ لهم الأنتينات على أبراج فوقَ بيوتهم، فيلتقطون قنوات التِّلفاز للدول العَرَبيَّة المحيطة، وهي على الأغلب الأردن، بالإضافة إلى قناة إسرائيل بالعَرَبيَّة، وقد كانت قمة التكنولوجيا والإبداع أن تتمكن من توجيه الأنتين ليلتقطَ قناةَ التِّلفاز السّوريِّ حتى لو «طلعت الصورة مغبّشة»، وصلْنا بيتَ الزّبون في باب حطّة، وهو أحدُ أبواب المسجد الأقصى، ويقَعُ بين بابِ الأسباط وباب الملك فيصل، كان الزبونُ قصيرَ القامة، نحيفَ الجسد، بائسَ الوجه، مَقيتَ المظهر، يلبسُ بنطالاً من القماش «كاروهات باللهجة المقدسية» أي مخطط على شكل مربَّعات بخطوط مُلوَّنَة، ويرفعُهُ إلى أعلى بطنه، ويشُدُّهُ إلى جَسَده بحِزام جِلْديٍّ مهترئٍ مُعلَّقًا عليه ميدالية فيها مفاتيحُ بأشكالٍ وأحجامَ مختلفةً «تخرخش» كلّما تحرَّك، يحمل سيجارة دخان «فريد» بين أصابعهً التي تلوَّنَتْ بالأصفر لشدة ما مرَّ عليها من سحائب دخانه، نَظَرَ لنا وكأنَّ النَّبيَّ المُخَلِّصُ حَضَرَ لِيُنْقِذَهُ، وقال:

- بِتْرَوّحوش يَخي... إلا والشّام عندي!

صَعدْنا إلى السطح، وكان مليئًا بصهاريج المياه، وقِطَع الأثاث القديم، وكُلِّ ما يخطرُ على البال من درّاجاتٍ هوائيَّة، وحتى فُرنٍ شمسيٍّ لتجفيف التّين ليصبح قُطّينًا، فَمنذُ أن صارت سياسة حصارِ النّاس في البلدة القديمة بالذات سُنَّةً مُؤكَّدة، ومع محاولات تهجيرهم الدائمة بمَنْعهم من البناء والتوسع، أصبَحت الأسطحُ مخازنَ، والمخازنُ بيوتًا للسكن! فقد اعتقدت حكومة إسرائيل واهيةً أنَّهُ عند التضييق على الفلسطينيّين بسَحْب هُويّاتهم المقدسيَة بُحُجَّة غيابهم عن القدس لسبعِ سنواتٍ متتالية، وسكنهم في مناطقِ الضفةِ الغربيَّة، سوف يتنازل

المقدسيُّ عن علاقته بالمدينة ويرحلُ بصمت، وكانت المفاجأةُ أنَّ الناسَ تقاسموا بيوتهم، ومَنْ كان لعائلته بيتٌ قديمٌ يملكُهُ الجَدُّ أو الأب، ويسكنُهُ الابنُ أو الحفيد، عاد إليه جميعُ الأبناء والأحفاد، وصار بيتُ العائلة مهوى أفئدة الأسرة الكبيرة، فتقاسموا غُرَفَهُ، وأثبَتوا وجودَهُم وسكَنَهم في القدس، وانقلب السحر على الساحر. كان سطح المنزل مُكْتَظًّا جِدًّا، وقفتُ بجانب البُرْج المعدنيِّ القائم، وعليه هوائياتُ «أنتينات» قديمة لقنوات الأردن وإسرائيل، نظَرتُ إلى الأعلى والأسفل، فكان البُرْجُ عاليًا وضعيفَ القاعدة، يتأرجح قليلًا مع الرّيح، وَكأنَّهُ فتاةٌ تزهو بقَدِّها المَيّاس، انتابني الذُّعْرُ للحظات، ولكنّي كنتُ على يقين نسْبِيٍّ بأنَّ المُعَلِّمَ لن يُرسلَني إلى الأعلى لتركيب هوائي «الشام»، وإنْ هو تَجرَّأ وطلبَ ذلك، سوف يَخافُ هذا الزبونَ المَقيتَ أن أقعَ وأموتَ على سطحه، فيحمل دمي إلى الأبَد.

نظر إليَّ المُعلِّمُ وقال:

- يلا يَخي نبيه شدّ حيلك، أنت لسّاتَكْ صغير وخفيف والبُرْج بِحمْلَك، وإذا وقعتْ -لا سمحَ الله- عَظْمَك بلْحم بسرعة!

جُنَّ جُنوني، ولكن كانت ثورتي تشتعلُ بداخلي فقط، بينما خوفي يسبحُ على وجهي الذي تفضحُهُ بعض الحمرة، وبغير ذلك لم أتمكَّنْ من التعبير عما يعتملُ في جوفي بأيِّ شكل آخر. خضعت لطلبه، وهَمَمْتُ بالصُّعود على درجات البُرْج، حتّى تدخَّلَ الزّبون صائحًا مع ضحكة فاجرة وسُعال قويٍّ جافّ:

- صَدَق اللي سَمّاك أبو طلعت الخُرَقْ، ولك الولد راح يْروح فيها!

فرَدَّ عليه المُعلِّمُ أبو طلعت، وهو ينظر في عينيَّ تارةً، ويهربُ بِنَظَرِهِ إلى أعلى البُرْج الحديديِّ المتآكل تارةً أخرى:

- مَعَلش... خَلّيه يْصير زَلَمة!

تمتَمْتُ بصوت منخفض جدًّا:

- شو بِنْفَعْني أصير زلمة وأنا مَيّت؟

لا أدري كيف سَمِعَني، فصَرَخَ مَرَّة أُخرى:

- يلّا اطْلَعْ يا وَلَد، بَلا هَبَل.

صعدْتُ مُجبرًا مخذولًا من اتّفاقيّات حُقوقِ الطفل، وقِيَم الرَّأفة بالصَّغير، وغيرها من الشّعارات التي تَقِفُ عند باب الفقراء، وتعود أدراجَها إلى منصّات الخطابة وصالونات الأغنياء، كان منظرُ قُبَّة الصَّخرة الذهبيَّة مذهلًا من الأعلى، شعرْتُ وكأنّي أقربُ إلى السَّماء منها إلى الأرْض، حملتُ الهوائيَّ بيديَّ، والعدّة من مفكّات وزرديَّة بجيْبي وتأرجحْتُ مع البُرْج، ولكنّي لم أقَعْ، رَكّبْتُ الهوائيَّ، ولم أنجحْ بتوجيهه كما يجب، فحضرَت الشّام، ولكن وكما يُقال في اللهجة المقدسيّة «مَنَمّشة» أيْ ليست واضحةً تمامًا.

نسيَ الزّبون تعاطفَهَ معي بعد أنْ وَطِئَت قدمايَ الأَرْضَ، ولم أعدْ مُعلَّقًا على البُرْج، وانهالَ عليّ بالتأنيب والبَهْدَلَة:

- منْ غير مَعلَمانيّة يَخي... بَس لو حرَّكتُه لليمين شْوَيّ، كانت الصورة أَجَتْ «طَبِعْ» أيْ واضحة جِدًّا، بنات الشام حِلوات خلّينا نْشوف وِجِهْ رَبّنا!

واستمرَّ بالضَّغط عليَّ للصُّعود مُجَدَّدًا، ولكنَّ شجاعتي المقهورةَ توقَّفَتْ هُناكَ، وقلتُ لنفسي:»بلا مَنَمّشة وبلا طَبِعْ، لو يقتلوني ما برجَع أطلَعْ». الشجاعةُ تُسعفُكَ في المُغامرَة للمَرَّة الأولى، أمّا ما دُمْتَ تَعْرِفُ ما ينتظرُكَ فهذا غباءٌ وليسَ شجاعة! وَخَلّيني وَلَدْ فِشّ حاجة أصير زَلَمة بعْيونْهم.

نظرْتُ إلى حوريَّة، وكأنَّ الحكمةَ كلَّها تقطرُ من كلامي:

- حوريَّة، المُعلّم وفيٌّ لزبونه وجَيْبَته على حساب حياتي والمخاطرة فيها، والزبون وفيٌّ لمصالحه ووضوح صورة المذيعة وبنات الشام بالرغم من تعاطفه وشفقته، وأنا كان عليَّ أن أكونَ وَقِحًا وَصلفًا كما الولد بائع محارم «الخاوا» حتى أعيش في هذه الدنيا وهذه المدينة!

- هادا جوابي وْتِسْألينيش أسئلة هيك صعبة كمان مَرَّة!

ضحكت هي وضحكتُ أنا، وقررتُ ألّا أُكملَ لها باقيَ قصة ذلك اليوم! فحقيقةُ أنّني نَجَوْتُ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ في بابِ حطة، كانت تكفي لأخرُجَ من الموقف الذي وجدنا أنفسنا عالقين فيه، ويكفيني أنّني نجحْتُ بالتهرُّب من السؤال وانتهَيْنا بالضَّحك مَعًا.

وما لمْ أروِه لها أنَّني رجعْتُ إلى البيت بعد مُغامرَة هوائيِّ التلفاز، لأجد زوجةَ عمّي نعمة صاحبة الصالون المهدوم اليوم، تقف عند الباب ومعها رجلٌ غريبٌ لم أرَهُ مسبَّقًا، لتكتمل بحضرته قصصُ ذاك اليوم والمؤامرات التي لا تنتهي!

وقفت نعمة خلف باب الحديد القديم، تلبس قميصَ نوم نَهْديِّ اللون، وتحته شَلْحَةٌ بيضاءُ طويلةٌ تُشبهُ كثيرًا «الشيّال أو قميص الشّبّاح» الذي يلبسُهُ الرجال تحت قُمصانهم، والشَّلحة أيضًا بلا أكمام، ولكنها أطول لتصل إلى ما فوق الركبة بقليل، وهي كانت بمثابة الطبقة الثانية من الملابس الداخلية التي تلبسها سيدات القدس، وفوق قميص النوم «الروب» من نفس لون قميص النوم، وهو أطول، ومع أكمام طويلة، وكان يُلبَسُ خارجَ غرفة النَّوم للتجوُّل براحة، كانت تُمسكُ بذرِّاع الرجل من فوق الرُّسْغِ، وتتكلَّمُ من خلف الباب وتقول:

- يوو يَختي هو ابن أخوي غريب، إنتي بس خلّي هالمصاري عندك بالخزنة، شو راح يصير عليكي! الأمان بالله.

ولكنَّ عَمّتي التي كانت تحتَشِمُ من الرَّجُلِ خلف الباب، وعلى رأسها غطاء الصلاة الأبيض « اليانس»، تنظر إلى الأرْضِ، وتردُّ عليها بصوتٍ لا يكادُ يسمعُهُ أحد:

- يا مَرْتْ أخي، الأمانة ما بْتحمِلْها جْبال، إحْنا ليش نحْمِلْها؟

وقفتُ بعيدًا أتنصَّتُ على الحديث، لم أتدخلْ طَبْعًا لخوفي من نعمة وردَّة فعْلها إذا تدخلْتُ، بَقيَ الكلامُ يُراوحُ مكانهُ حتى استعملتْ نعمة كلمتَها السحريةَ التي جعلتْ عمتي تقبلُ بالاحتفاظِ بمصاري الرجل الغريب في الخزنة، حَسَمَتْ تردُّدَ عَمتي بكلمتين:

- عَدوَّات يَختي، كُلّ ما أطلُبْ منِّكْ طَلَبْ إلي أو لأَهْلي بتخَجّليني قُدّامهم، راح أحكي لأخوكي وهو يتصرَّفْ معكْ!

كانت عمتي تخاف أخاها جدًّا، وتعرف مدى سيطرة نعمة عليه، سكتت لبرهة، ثُمَّ مدَّتْ يدَها وأخذت كيسَ النقود ودخلت، ابتسمت نعمة ومَن معها ابتسامةَ المُنتصر وأدبرا يُتَمْتمان.

اتَّضحَ أنَّ جَدّي لأبي صلاح الدين، أحضرَ معه بالباخرة من أمريكا عندما عاد في آخر أيّامه ليموت في القدس خزنةً ضخمةً نمساويّة الصنع من نوع «أنطون مالي وين» وهي من أقوى خزنات العالم، التي لا يمكن اختراقها بسهولة، تزنُ ثلاثمئة كيلو غرام على الأقل، وتمَّ تسجيل آلية إقفالها كبراءة اختراع في ثلاثينيّات القرن الماضي، كانت الخزنة تحتوي على الأساور الذهبية التي تركتْها جدَّتي لبناتها بعد مماتها، وتتلخص المُؤامرة هذه المَرَّة بحاجة ابن أخ نعمة «الذي لا نعرفه» إلى حفظ ماله في مكان آمن، فلم يجد أفضل من الخزنة الموجودة لدى

بنت حمى عمته لترك «التّحويشة» فيها. قصة غريبة لم تخطرْ على بالِ الشيطان نفسه، ولكن سرعان ما فهم الجميع تفاصيلها المريبة.

عاد ابن الأخ إلى عمته نعمة بعد أسبوع، وأخبرها أنه يريد نقودَهُ لأَمْرٍ هامٍّ جدًّا، وبتعبيرها «يعني مسألة حياة أو موت»، فأحضرته إلينا ملهوفًا، دخلَتْ عمتي مسرعةً لفتحِ الخزنةِ وإعادة الأمانة لصاحبها ولكن للأسف، لم تجد المفتاح.

بحثنا جميعًا عنه كالمجانين في كل مكان، لدرجة أنَّ عمتي خرجت إلى الشارع لتبحث في حاوية الزبالة والتي تسميها « الترولّي» بلهجة القدس الأصليّة خوفًا من أن تكون قد رَمَتْهُ بالخطأ، كُنّا جميعًا نعلمُ أنَّها لن تجده! بلا شَكٍّ سَرَقَتْهُ نعمة وأخْفَتْهُ.

بعد ساعتين من البحث، لم يظهر المفتاح، وبدأ صاحب الأمانة يلقي بالمسؤولية على عمتي المسكينة التي كادت أن تموت من ضيق النفس، واحمرار الوجه، وضغط الدم الذي بدا في وجهها وحركاتها، جاء الاقتراح الأمثل من نعمة:

- خلص جيبو حَدّاد يكْسِرْ باب الخزنة، فشّ حَلّ تاني!

قالتِ الجملة واخترعت بعض تعابيرِ الوجه، وكان الألمَ يعتصرها، كان حلٌّ نعمة كحبل النجاة لعمتي، فأرسلتني لأجد حَدّادًا، قائلةً بِتَرَجٍّ:

- روح يا عمتي يا نبيه الله يرضى عليك دبِّرلنا حَدّاد، وْتعال بسرعة قبل ما تِخْرَبِ الدّنيا.

ذهبْتُ راكضًا من الشيخ جرّاح عبر طريق السيل مارًّا بمغارة (أبو جبنة)، وكان هذا الطريق المختصر الذي لم يكن مفتوحًا للسيارات بعد، وجدْتُ بعد طول عناء حَدّادًا يقبل بمرافقتي لكسر باب الخزنة، صعدنا بسيارة «البيكاب» وكانت سيارة مع صندوق مفتوح من الخلف، أرشدْتُهُ إلى الطريق بأنفاسٍ ملهوفة، أخَذَ عدَّتَهُ ونزل معي.

عملَ الحَدّادُ جاهدًا لمدة ثلاث ساعات متواصلة حتى نجح بكسر باب الخزنة واختراق الأقفال جميعها، وبمجرد فتح الباب هجمت نعمة لتتأكد من محتويات الخزنة التي بقيت في مهب الريح، أخذ ابن أخيها نقوده تاركاً خلفه أساورَ جدَّتي ورُزمتيْن من الدولارات يبدو أنَّ جَدّي تركها قبل وفاته، بعد عدة أيّام تبخَّرَت الأساورُ الذهبيَّةُ من الخزنة المكسورة، ولم تظهر إحداها إلا بعد عشرة أعوام حول معصم زوجة عمي المصون... نعمة.

هذه القصَّة لم أروِها لحوريَّةَ أبَدًا خوفًا من أن أخسرَ تعاطفَها مع الصالون المهدوم، وحتى لا أنشرَ الغسيلَ الوَسخَ كما يقولون، فكُلُّهُم ذهبوا إلى رحمة ربِّهم دون أن يأخذوا معهم شيئًا، ولم يبقَ من الذكرى سوى الأسى والشفقة على حماقة الإنسان.

الفصل الثالث:

النُّبوءة

حورِيَّة 1: الصبر وحده لا يكفي للفَرَج!

طَلَّقَني حبيبٌ ومات، ومِنْ ثَمَّ تزوَّجْتُ عشيقًا شَغفًا بالحياة وتفاصيلها! أحضرْتُ الكَلْبَتَيْن اللتيْن أملكهما لنفسي، وعُدْتُ إلى بيت أبي في الشيخ جرّاح، لأتزوَّجَ نبيه الرَّجُلَ الذي بَقِيَ يَغارُ مِنْ «هُوَ» الزوج الميِّت. تزوَّجَني بعد مغامرات عاطفيَّة تَلَتْ لقاءَنا العابرَ في الطائرة العائدة إلى فلسطين، تحدّى نميمةَ المجتمع، وبالرغم من إشاعات الجيران عن فتاة فستان الجورجيت الأسود، إلا أنَّ نبيهًا وافقَ على أنْ يأتيَ ليعيش معي في بيت أبي، ولكنه وضع شرطًا أن يدفعَ لأخي المهاجر حصَّتَهُ في البيت قبل انتقاله للعيش معي، فلا يكون عالةً عليَّ حسَبَ المعتقدات الشرقيَّة.

قرَّرْنا معًا أن نبقى شوكةً في حلق هؤلاء المستوطنين الذين سكنوا بيت الخالة رُقَيَّة بجانبنا، كم تفاجأنا من صِغَرِ الدنيا وضيقها حتى بين الضحية والجلاد، ليجعل من رونيت زميلةَ نبيه السابقة في شركة توزيع الجرائد أيام شبابه مُستوْطِنَةً تسكنُ بجانبنا.

إتسفيكا اليهودي نصف الشرقي ونصف الغربي الأشكينازي، استوطن أبوهُ في فلسطينَ مع بَدءِ المشروع الصهيوني حين قامت الحركة العالميةُ بإحضار اليهود عبر البواخر من العراق إلى فلسطين، مرورًا بقناة السويس إبّان النكبة، أمّا أمُّهُ فهي من يهود بولندا الناجين من المحرقة «الهولوكوست»، لعب الحظ والتوزيعِ غير العادل للجينات لدى إتسفيكا لصالحه، فكانت ملامحه غربيةٌ لأمِّه، وطولُهُ فارعٌ مع وجه مُدَوّر أشقرَ مائل إلى الاحمرار، وعيناه بنيَّتين تميلان إلى العسلي، يرتدي دوْمًا قميصًا أبيضَ يخرج طرفه من حزام البنطالون بسبب كرشه الذي يهرول أمامه، أما أطباعه وعقليته، فهي بلا شك جاءت من الجينات الشرقية التي ورثها عن أبيه العراقي، لكن إتسفيكا لم يعترف حتى بينه وبين نفسه أنَّ له أيَّ أصولٍ عربية، وقد انحاز منذ طفولته إلى جذور

أُمِّه البولندية، وأعلن نفسه أشكنازيًّا أصيلًا، وألّفَ القصصَ الطويلةَ عن تجاربه في أوروبا، والعنصرية التي عانى منها بالرغم أنَّهُ لم يعِشْ في أوروبا يومًا واحدًا، إلا أنَّهُ تبنّى ما كان يسمعه ونسبه إلى نفسه، ورغم أنَّ ذوقه بالطعام كان شرقيًّا كما كنا نسمع زوجته رونيت تصيح وتقول في مساء يوم الجمعة:

- إتسڤيكا .. يكفي لحد هنا، خسارة على المصاري، تجعلني أطبخ ما لا تحب، فنرمي بالأكل إلى الزبالة!

كان إتسڤيكا يجبر رونيت أن تُعدَّ «الجيفيلتي فش» وهو السمك البارد الذي يفتتح به اليهود الأشكناز وجبة ليلة السبت، ولم يقبل يومًا أن تطبخَ له سمكة أميرة النيل «نسيخات هانيلوس» الساخنة التي يطبخها اليهود السفارديم «الشرقيين»، وفي كل أسبوع تُرمى وجبته في القمامة.

كان إتسڤيكا يرد عليها غاضبًا:

- هل تريدين أن يعتقدَ الأولاد أنّني لست أشكينازيًّا؟ ألا يكفينا إشاعات المتربصين بنا، الذين لا يعجبهم ما وصلت إليه؟!

أصبَح لإتسڤيكا شأنٌ كبيرٌ بين المستوطنين، وقد اكتشف مؤخرًا أنَّ الكلمة الآن ليست للدولة وأجهزتها، بل للتجمُّعات الاستيطانية المتمردة، سوف يترك عمله السابق في راديو إسرائيل وتجسُّسَهُ على العرب، وينطلق بحياته القياديَّة الاستعمارية، أما زوجته رونيت فقد أصبَحت صدفةً إعلاميةً محسوبةً على تيّار المتديّنين الوطنيّين، وتعمل في مكتب الناطق بلسان مجلس المستوطنات «ييشع»، وذلك بسبب خلفيَّتها في إدارة توزيع الجرائد، ويبدو أنَّها وزوجها إتسڤيكا أقنعا المجلس أنَّ «طبّاخ السُّمّ بدوقو» وبالتالي فإنَّ سنوات من عملها وهي توزِّعُ الجرائد، وتقرأ العناوينَ في كُلِّ يوم والناس نيام جعلت منها إعلاميةً تجيد السَّبَّ والذَّمَّ

والقَدْح، وطالما أنَّ هناك عدوًّا جاهزًا لإلقاء الذَّنْب عليه والتَّشهير به، فقد أصبَحت الوظيفة سهلةً وممتعةً في حربٍ غيرِ متكافئة، ولكنَّها ومع وظيفتها الجديدة ومسؤولياتها العديدة لم تستغنِ عن مقارعتنا في الحَيّ، والمحاولات البائسة للاستيلاء على بيوتٍ فلسطينيةٍ بالترغيب والترهيب ظلَّت حاضرة.

كنت قد عُدْتُ وبتشجيع من نبيه إلى كتابة المقالات في جريدة مرموقة في رام الله، لم أهتمَّ حقًّا بالقضايا المقدسية كما فعل معظم أبناء المدينة، رُبَّما لأنني ما زلتُ أعتقدُ أنَّ القدسَ جزءٌ من كُلٍّ، وأنَّ حُسني البورظان (الفنّان نهاد قلعي رحمة الله عليه) كان على حَقٍّ في مسلسل (صَحّ النوم) مع الفنّان دريد لحّام عندما قال:

- إذا أردْتَ أن تعرفَ ماذا يحصل في إيطاليا، فعليك أن تعرف ماذا يحصل في البرازيل.

حاولتُ أن أعرفَ كيف يرتبطُ هذا العالمُ بعلاقات معقدة، ومصالحَ معلنة ومخفيَّة تؤثِّرُ في النهاية على مجرى حياتنا، خاصةً كوننا كفلسطينيّين الحلقةَ الأضعفَ، ورُبَّما بطاقة «الجوكر» التي يرفعها كل من يعلق في الزاوية! فالمشاريع «الثورجيَّة» سواء المحلية أو الإقليميَّة لا تتذكر فلسطين والقدس إلا عند دخولها في مأزق يحتاج إلى شعار رَنّان، وورقة توت تغطّي العورات.

ولكنَّ زوجي الجديد نبيه الذي اكتشفْتُ مدى البراغماتيَّة التي يتمتع بها في تحليل الأمور، أصبَح صمّامَ الأمان الخاص بي، كيلا أنفجرَ معلنةً حقائقَ لا تُغيِّرُ معرفة العامة بها أيَّ شيء، بل تشفي غليلي قليلًا فقط، وتُشعرُني بأنَّي مارسْتُ أضعفَ الإيمان، وبعدها ينقلونني إلى جهنَّمَ وبئس المصير، فلا أجد من يعمل معي أو ينشر لي شيئًا.

افتقدت أبي واشتقت إليه في كل يوم تقريبًا، رُبَّما لأنه الوحيد في هذا الكون الذي كان يؤمن أنَّني على حَقٍّ بكُلِّ شيءٍ قبل أن يعرف أو يسأل عن التفاصيل، حاولْتُ أن أجدَ هذا الدَّعمَ اللامتناهي عند عشيقي وزوجي الثاني نبيه، ولكنَّ الأبَ هو الأبُ، يُحَرِّكُهُ الحبُّ غيرُ المشروط، والدَّعمُ اللامحدود، حتى عندما أكون على خطأ، أما زوجي فلا يستطيع الابتعاد عن المنطق في حُبِّه ودعمه.

رِحلَتي البسيطةُ للحب والوطن والحياة لم تنته بعد، ولن تنتهي أبَدًا كما يبدو، رَحَلَ أبي واستقرَّ زواجي بنبيه، واختفى أَخي بعد أن قبض ثمن حصَّتِه في بيت العائلة، وبقيتُ في القدس أحلم أن أنجب للمدينة ولزوجي أكبر عدد من الأولاد، وأن نجعلَ منهم بشرًا أسوياءَ ليبقوا من بعدنا صامدين في هذه المعركة التي لن تنتهي قريبًا. فعل أولئك المستوطنون كلَّ ما يمكن لشراء ذمَّتنا وتحويلنا إلى أتباعٍ لهم، ورُبَّما عملاء نساعدهم على سرقة البيوت والأراضي، سواء بعرض عشرات الأضعاف لقيمة العقارات لإغراء الناس للبيع والهجرة، أو بترهيبهم بالمحاكم والإجراءات وأجهزة الأمن، ومنذ أن احتلوا بيت جارتنا رُقَيَّة بموجب ادعائهم خرق قانون المستأجرين المَحميّين، وادعائهم أمام محاكمهم أنَّ هذه البيوت وهذه الأَرْضَ حَكَّرَتْها (استأجرتها لفترة طويلة) عائلاتٌ يهوديَّة نهاية القرن قبل الماضي من الإمبراطورية العثمانية، وفي العام 1948 م وقعت هذه الأراضي في الجزء الشرقي للمدينة الذي أصبَح تحت الوصاية الأردنية، ولم يتسنَّ لهم استكمال فترة التحكير! وبعد احتلال باقي المدينة في عام 1967م عادوا ليطالبوا بالأَرْض وما عليها، وأصبَحنا نحن المغلوب على أمرنا وأَرْضنا ضيوفًا عليهم؛ لأنَّ الأَرْضَ مُلْكُ الدولة، والآن الدولة هي دولتهم، والمستأجر صاحب المنفعة هم عائلة يهوديَّة يدَّعي المستوطنون وجمعية «نحلات شمعون» أن سلالة تلك العائلة قد باعتهم حقوقها في

الأَرْض، وأصبَحت هذه الجمعيات الاستيطانية هي غريمنا في المحاكم الإسرائيلية، وقد ثبَّتوا حقوقهم بالدوائر الرسمية بالتزوير، فقد قدَّموا إلى محاكمهم عقدًا باللغة العثمانية «التركية القديمة» على أنها سند ملكيّة، والتي اتضح لاحقًا أنها وثيقة لاستئجار الأرض بشكل مؤقت لثلاث سنوات فقط تبدأ في العام 1891م، وعند الفحص في الأرشيف العثماني، وتحديدًا لدى مدير الطابو في تركيا تبيَّنَ أنَّ الوثيقة التي قدموها ليس لها أيُّ أصل في الأرشيف التركي. ومع كل ذلك لم ننجح بحسم القضية لمصلحتنا أمام محاكمهم، وبِتنا نحن من يدافع عن نفسه لنبقى في بيوتنا.

كان والدي رحمه الله من قيادات الحَيّ التي تابعت القضية منذ خمسينيات القرن الماضي، وقاد الأهالي منذ تَقَدَّمَ المستوطنون بأول دعوى قضائية في سبعينات القرن الماضي ضد العائلات الفلسطينية، وأذكُرُ في طفولتي الجلسات الطويلة للجنة الحَيّ مع المحامي اليهودي اليساري الذي كان يمثلهم بعد أن امتنع جميع المحامين في القدس عن الترافع أمام المحاكم الإسرائيلية، وذلك من منطلق عدم إعطاء شرعية للاحتلال ومؤسساته، ورُبَّما أيضًا لقناعة راسخة لديهم أنَّ احتلال الضفة وغزة والقدس والجولان هو غارة سريعة سوف تنتهي خلال أيّام أو أسابيع أو أشهر أو حتى سنوات قليلة، فلا يمكن هزيمة ثلاث دول عَرَبيَّة من قبل دولة جديدة وصغيرة لم يتعدَّ عمرها التسعةَ عشرَ عامًا، وأنَّ العالم لن يسكت أمام تكرار مأساة الفلسطينيّين كما في الـ 48، كان السيد كوهين اليساري الصهيوني المدافع عن قضايا الأقليات، وخاصة العرب، يُبدي اهتمامًا لافتًا بقضاياهم، وهذا الاهتمام ليس من باب إنصاف أَهْل الأَرْض الأصليين أمام الغزاة المستعمرين، بل من باب أنَّ العنصريةَ هي غيرُ نافعةٍ للدولة الصهيونيَّة والمجتمع الإسرائيلي

السَّوِيّ، وأنّها تضرُّ بشكلها وسمعتها في العالم، وأنَّ اعتيادَ الإسرائيليِّ على الكراهية واستخدام العنصرية والعنف ضد أيَّة فئة مستضعفة سوف ينعكسُ في يوم ما على داخل المجتمع نفسه، ويقلل من شأن المواطنِ الإسرائيلي المتوسطِ الذي سوف يمارس التصرفات الغوغائية نفسَها على أهْله وجيرانه. لقد كان توسيا كوهين وأمثاله يؤمنون بالدولة الصهيونيَّة العلمانيّة الراقية، ويحاولون مساندة الفلسطينيّين في صراعهم القانونيِّ ضدَّ الدولة والمستوطنين، حتى تزدهر الديمقراطيَّةُ الإسرائيليةُ أكثرَ وأكثرَ، ويحققوا شعارَ الدولة اليهوديَّة والديمقراطية.

كان السيد كوهين يتحدث العَرَبِيَّةَ بِشِبْه طلاقة، يأتي بسيارته (الرّينو) السَّكَنِيّة، وبهندامه الراقي إلى بيتنا في الحَيّ كل شهر تقريبًا، يحمل في يده حقيبة جلدية سوداء مليئةً بأوراق رسمية مكتوبة بالعِبْرِيَّة التي لا يفهمها غيره، يلقي خطابًا ثوريًّا عن الحق والعدل، ويقنع السكان أنَّ نجاحَ القضية مضمونٌ بين يديه، يرونها بعيدة ويراها قريبة، وفي نهاية كل جلسة مع الأهالي يقبض أتعابه التي يكون قد جمعها أبي له من سُكان الحَيّ ويغادرهم مبتسمًا.

الأستاذ كوهين، باع موكِّليه السكان في المحكمة بعد أن قبض أموالهم أتعابًا له على مدار سنوات عديدة، وعقد صفقة باسمهم، وافق بموجبها على تسميتهم «مستأجرين محميين» وليسوا مالكين لبيوتهم، اعتقد جميع سُكان الحَيّ أنَّ القضيَّةَ انتهت وانتصروا، ولا أتعاب لكوهين بعد اليوم، وكانت جارتنا رُقَيَّة من بينهم، فقد كان بيتُها أوَّلَ بيت يُكتبُ له الضياع، وأذكرُ تمامًا أنَّهُ يوم حضر المحامي ليبشرهم ويودعهم مدعيًا أنَّهُ انتصر في المحكمة، وأنهم قد أصبحوا اعتبارًا من اليوم مستأجرين محميّين، تحت رعاية الجمعية الاستيطانية، ولن يطالبهم أحدٌ بإخلاء المنازل «حاليًّا» ، أطلقت رُقَيَّة زغرودة صدحت في الحَيّ:

- أويها... ومن اليوم مش راح ندفع بالقطّارة.
- أويها... وخلّصنا كوهين من الشبكة والصِّنّارة.
- أويها... وتركونا العربان مشردين بالحارة.
- أويها... وأجا الخواجا ونشلنا من تحت الغارة.

كان أبي من القلائل الذين لم يصدقوا ولم يتعاطوا مع الخبر السَّارِّ الذي زَفَّهُ المحامي لهم، ولكنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة؛ لأنَّ سُكان الحَيّ الذين أرهقَتْهُم أتعابُ المحامي حينها، ومع سوء الحالة الاقتصادية، حيث وضعت الانتفاضةُ الأولى في ذلك الوقت وزرَها على الناس والأشغال، فأيقنَ أبي أنَّ الغالبيَّةَ لم تكن مستعدةً لسماع مَنْ يُشَكِّكُ بالإنجاز العظيم، ويعيد مسلسل الدفع الشهري للقضية.

توقف الدفع وتوقفت القضية بضعَ سنوات، حتى عاد المستوطنون وجمعيَّتُهم «نحلات شمعون» وبدأوا يطاردون السكان بشكل فرديٍّ بالمحاكم، فلم تعد قضيةٌ واحدة ضدَّ ثمانٍ وعشرين عائلةً، بل استفردوا بنا واحدًا واحدًا، وكلُّ بيتٍ يقعُ فريسةً جديدةً بحجةٍ مختلفةٍ تدور حول انتهاك قواعد الإيجار المحميّ.

بعد وفاة أبي بعدة سنوات جاء أحد الجيران الذي رفعت الجمعية الاستيطانية دعوى ضده بحجة أنه أضاف إلى البيت «بيت خارج» أي غرفة مرحاض خارجية بدون الحصول على إذنِ المالك! وطلب مني أن أبحث في أوراق أبي لأجد أوراق القضية القديمة والحكم الصادر فيها، ليدرسها محاميه في دفاعه، خاصة وأنَّ السيد كوهين اختفى ولم يعد أحد يستطيع الوصول إليه. أصبَحتُ أبحثُ في غرفة النوم الخاصة بوالدي، وبين أوراقه التي كان يخبئها في خزانة سرية طلبها من صديقه العمّ واصف النّجار، الذي فَصَّلَ له غرفة نوم جديدة بعد وفاة أُمّي، وكانت

الخزانة السرية مزروعة في «راسية» السرير، وبابها يفتح من تحت الفرشة والوسادة، كنت أعرف عن الخزانة السرية؛ لأنَّ والدي أخذني من يدي يوم زفافي بزوجي الأول «هو» ورفع الفرشة أمامي، وفتح الخزانة وأخرج أسوارة ذهبية كانت قد أوصت أمّي بها لي قبل وفاتها، كما أوصت أن ألبسها يوم عرسي، ولكني بعد وفاته نسيت هذه الخزانة كُلِّيًّا، ولم يخطر ببالي يومًا أن أفتحها وأنظر ما بها.

فتحت الخزانة، لأجد حقيبة مُدراء «سنسونايت» لونها أسود، مُهترئة، إذ أصابَها العطَبُ في بعض زواياها وفي يدها، وبالرغم من أنَّهُ كان عليها قفلٌ بأرقام سِرِّيَّة، إلا أنَّ أبي الذي اعتاد أن يقفل على كل شيء، ولهدف في نفسهِ تركها مفتوحة، احتوت الحقيبة على مئات الأوراق الرسمية حول القضية من العام 1956م وحتى أواخر ثمانينيّات القرن المنصرم، مراسلات مع وزارة التعمير والإسكان الأردنية، ووكالة غوث وتشغيل اللاجئين، أوراق عثمانية قديمة، وبعدها محاضر جلسات مترجمة من العِبْرِيَّة إلى العَرَبِيَّة، وملاحظات من اللقاءات الشهرية بالمحامي، ووصولات لدفعات الأتعاب التي تلقّاها من أبي ومن باقي الجيران، وفي جيب الحقيبة الجانبي وجدت حُكمَ المحكمة التي ادّعى توسيا كوهين أنه انتصر فيها بتعريفنا أننا مستأجرون محميّون بدل أصحاب العقار، انتزعتُهُ من جيب الحقيبة لأصوِّرَهُ في طريقي إلى باب الساهرة عند مكتبة الشنّاوي، وأعطي الجار النسخة التي طلبها، ولكنَّ الورقتين كانتا بداخل كتاب صغير صدمني جِدًّا وجوده هناك!.

كنت أفهم تمامًا تاريخ حقيبة «القضية» والتي كان من المفهوم ضمنًا أنها قضية تهجيرنا من حَيِّ الشيخ جرّاح، ولكن لماذا يحتفظ أبي بحكم المحكمة داخل كتاب مكتوب باللغة العِبْرِيَّة، أوراقُهُ مثنيَّةٌ، وشبه ممزقة لتوالي عدد مرّاتِ فتحِهِ وإغلاقه وقراءته، وكان الكتاب مترجمًا

بخط اليد! كل سطر مطبوع بالعبْرِيَّة، مكتوب ترجمته إلى العَرَبِيَّة فوقه، مَحَّصْتُ وتفحَّصْتُ خَطَّ اليد، وقارنْتُهُ بخَطِّ يَد أبي، ولكنَّ هذا ليس خطَّ يَدِه! كان خَطُّ يد والدي أجملَ من ذلك الخَطِّ بكثير، فتحتُ الكتاب، وإذا هو «رواية» مترجمة أصلًا من اللغة الألمانية إلى العِبْرِيَّة، وعلى صفحتها الأولى كانت هناك جملةٌ مترجمةٌ بخطِّ اليد نفسه، جعلتني أترك الحقيبة السوداء المليئة بالأوراق، وأدسُّ حُكْمَ المحكمة في جيب البنطالون، وأجلس على يد الكنبة الزيتيَّة في غرفة نوم أبي، وأبْدأ بالتقصّي، وتقليب هذه الرواية الغريبة، فلم يكن أبي يومًا مُغرَمًا بالأدب، وبالتأكيد، فهو ليس مغرمًا بالأدب والروايات اليهوديَّة، كان مكتوبًا فوق الكلمات العِبْرِيَّة التي لا أفهمها:

- إذا شئتم... فهذه ليست أسطورة.

قلَّبْتُ الكتاب، وفتحتُ كُلَّ صفحاته المكتظة بالعِبْرِيَّة والعَرَبِيَّة، كُتِبَت الترجمةُ فوق كُلِّ سطر بقلم حِبْرٍ سائلٍ، وبخَطٍّ صغيرٍ من الصَّعب قراءته، وفي منتصف الرواية وجدتُ ورقتين مطويتين من المنتصف، ومنتزَعتَيْن من دفتر يوميات كتبهما والدي بيده، نظرت إلى الأوراق وابتسمت، ودون أن أشعر، بدأت أبكي مع الابتسامة، لأنني عرفت ما بداخلهما قبل أن أفتحهما، إنها عادة والدي التاريخيّة، كان يعشق التلخيص لكل شيء، فكم مَرَّة استشاط غضبًا أيّام دراستي في المدرسة لأنني لا ألجأ إلى تلخيص الدرس والأفكار الرئيسية على دفتر خارجي، وأنني لا أسمع كلامه وأعتمد طريقته خلال دراستي، وهذا ما سوف يجعلني أفشل في المستقبل «حسب رأيه»، وكم مَرَّة طلب من أُمّي رحمها الله أن تشتري لي دفتراً لليوميّات، تكون كلُّ ورقة فيه ليوم من أيّام السَّنَة، وعليها التاريخُ لألخِّصَ عليه ما أتعلم في كل يوم، تمامًا كالورقتين اللتين وجدتهما الآن في هذه الرواية الغريبة المكتوبة بلغة غريبة، والموضوعة في حقيبة فيها

أوراق قانونية ليس لها علاقة لا بالفكر ولا بالأدب «كما اعتقدت»، كان عنوان الورقتين كما كتب أبي بخطه الأنيق:

«أَرْض قديمة جديدة، هل تتحقق الروايات؟

توقفتُ لدقائقَ أُبَحْلِقُ في العنوان، ولم أفهم ما يدور حولي حتى قرأت عدةَ مرّاتٍ ما جاء في مَتْنِ تلخيص أبي، وهو:

كتب ثيودور هرتسل روايته الأرض القديمة -الجديدة «ألطنويلاند» عام 1902م بعد زيارته لفلسطين عام 1898م ليتوفى في ڤيَنّا عاصمة النمسا بعدها بعامين عن عمر ناهز الـ 44 عامًا بظروف غريبة لم تُكشف ملابساتها حتى اليوم، ولا أعلَم ما هي تلك الصدفة التي جعلت اسم أول رئيس وزراء لإسرائيل «دافيد» بن غوريون مشابهًا لاسم «دافيد» لوتفيك أحد أبطال رواية هرتسل والذي تم انتخابه رئيسًا للحركة الصهيونيَّة في الرواية المنشورة قبل مئة وعشرينَ عامًا.

تقول الرواية باختصار: إنَّ الطبيب اليهودي فريدريخ ليبنبرغ يهرب من حياته مع المليونير الألماني كينجسكورت بعد أن نشر الأخير إعلانًا في الجريدة يقول: «مطلوب شاب متعلم ويائس، مستعد للتجربة الأخيرة في حياته» وكان فريدريخ يُعاني من البطالة وألَم تَرْك حبيبته له، فيقبل الخوض بالتجربة! ويأخذ مبلغًا من المال من كينجَسكورت ويهبها بالكامل لعائلة يهوديَّة فقيرة كان قد التقى بابنها الصغير دافيد صدفةً في الشارع قبل ذلك بيوم، وعزم على مساعدتهم ليهاجروا إلى فلسطينَ أَرْض الميعاد.

يخرج اليائسان فريدريخ الشاب وكينجسكورت المليونير إلى رحلة الاعتزال من الدنيا على جزيرة نائية على متن سفينة، وعندما يقتربان من شَطِّ فلسطينَ، يقترح كينجسكورت على زميله أن يتوقفا لزيارة سريعة فيها قبل العزلة، ترسو السفينة في ميناء يافا، فيشاهدان الفقرَ والجهلَ والتَّشَرُّدَ والضّياع «حسب وصف الرواية» حيث أطلقت التعميم الآتي:

- الأتراك فقراء والعرب قَذِرون واليهود خائفون.

فيسأل فريديخ طبيبًا روسيًّا يقابله في فندق إنجليزي بالقدس:

- أين بلاد الحليب والعسل التي يصفونها؟ هل ما سمعناه عنها لم يَعُدْ موجودًا في الواقع؟!

فيجيب الأخير:

البلاد موجودة بالتأكيد، ولكن الشعب غير موجود، وعندما يصل سيكون هنا كل شيء!»

فيكتب أبي بالخط العريض على ورقة التلخيص:

رُبَّما من هنا ولدت فكرة أَرْض بلا شعب لشعب بلا أَرْض! وبعدها يكمل تلخيصه:

«بعد عشرين عامًا يعود الاثنان من العزلة في الجزيرة النائية، ويمرّان بفلسطينَ أيضًا كما حصل في رحلة الذهاب، فيكون المجتمع الصهيوني قد وُلِدَ، والدولة الجديدة قد بدأت، وتحوَّلَتْ أَرْضُ المزابل التي زاراها قبل العزلة إلى جنَّة الله على الأَرْض بفعل المجتمع الجديد، فيقرران أن يبقيا فيها إلى الأَبَد، حتى أنَّ دافيد الطفل الفقير في شوارع ڤيَنّا أصبَح من قادة المجتمع الجديد، وأنشأ شبهَ مدينة جديدة ومنحها اسم «فريدريخهاسيا» على اسم الطبيب الغريب الذي تبرع له ولعائلته بالمال من أجل الهجرة إلى أَرْض الميعاد واختفى، وكانت هذه رسالة لكل أغنياء اليهود بالتبرع للحركة الصهيونيَّة الصاعدة في حينه!»

أضاف والدي في تلخيصه:

«ما هو مثيرٌ فعلًا في القصَّة بالنسبة لنا كفلسطينيين، وعطفًا على قُوَّة الأدب وتنفيذ الحركة الصهيونيَّة لأغلب ما ورد في أحلام هرتسل الروائية، هو كيف رآنا ثيودور هرتسل كعرب ونحن سُكّانُ الأَرْض

الأصليين، فقد حصر هرتسل النموذج العربي في شخصيتين؛ شخصية الفلاح الفقير المعدوم الذي يبحث عمّن يشغله ليعيل نفسه وعائلته، وهو يرضى الذل والمهانة، وشخصية الإقطاعي المنتفع المستسلم للاستعمار الاحتلالي الجديد، ويبحث عن مكانٍ متواضع له في المجتمع الجديد أملًا في تقبّله فيه، يكتب هرتسل في صفحة 97 على لسان رشيد بيك الإقطاعي دكتور الكيمياء من ألمانيا بعد أن سأله كينجسكورت:

- هل تدمرت حياة السكان السابقين لفلسطين واضطروا للهجرة بعد هجرة اليهود إليها؟ أسأل بشكل عام، لأنَّ حقيقة أنَّ البعض منكم تحسنت حياته لا تدلُّ على شيء!

يرد رشيد بيك بتعجب، وهذه الرواية والحوار كتبا قبل النكبة بستٍّ وأربعين سنة تقريبًا:

- ما هذا السؤال! لقد كان ذلك جيّدًا لنا جميعًا، وفي مقدمتنا أصحاب الأراضي، وطَبْعًا كانوا يستطيعون بيع أراضيهم للمجتمع اليهودي الجديد فورًا، وبأسعار عالية، أو أن يحتفظوا بها قليلًا حتى ترتفع الأسعار أكثر، أنا مثلًا كان أفضل لي بيع أَرْضي للمجتمع الجديد.

فسأله كينجسكورت:

- ألم تقل إنَّ البساتين التي مررنا بها هي لك؟

فأجاب رشيد بيك:

- صحيح، بعد أن بعت الأَرْضَ لليهود، استأجرْتُها منهم.

تعجب كينجسكورت:

- إذا كان كذلك، لم يكن عليك بيعها منذ البداية!

- ولكن ذلك كان في مصلحتي. أجاب رشيد بيك.

لأنني أردت الانضمام للمجتمع الجديد، ولأجل ذلك كان عَليَّ قَبول قوانينه فيما يتعلق بملكية الأراضي... أعضاء المجتمع الجديد لا يملكون الأرْضَ «فكلُّها للدولة».

ثم أكملَ أَبي تلخيصَهُ:

تُعَدُّ الروايةُ الدستورَ القديمَ لدولة إسرائيل كما وضعَهُ مؤسِّسُها، وصلَتْ أفكارُهُ ورؤيته وأحلامُهُ إلى جميع القُرّاء اليهود، وخاصة المثقفين وأصحاب النفوذ والمال بدون خطابات رَنّانة، ولا شعارات وحملات دعائية، ولكن ما لفت انتباهي في هذه القصَّة التي صدرت قبلَ نكبة فلسطينَ بعشرات السنين، هو هذا الفكر الذي بَثَّتْهُ الصهيونيَّة النَّاشئة:

«إنْ أرَدْتَ أن تكون معنا فأنت لا تملك شيئًا! ولكن يمكن أن نسمح لك أن تستفيد حسب شروطنا وقوانيننا!»

أضاف أبي إلى ما كُتبَ أعلاهُ، وبخَطٍّ قَلَمٍ أحمرَ قاسٍ، فكما يبدو كتب نهاية تلخيصه بغِلٍّ وغضب:

«لقد حوّلَنا المحامي الثعلب إلى «رشيد بيك» في رواية هرتسل بدون أن ندري أو ندرك أنَّ هذا ما يفعله، لقد استخدم المبدأ نفسه، ولكن مع تطورات المئة عام الأخيرة، جعلنا نصدق أنَّ تصنيف «مستأجرين محميين» من الجمعية الاستيطانية هو في مصلحتنا، وأنَّهُ بقبولنا ذلك لن نضطرَّ لدفع الأتعاب له، وأنَّنا قد انتصرنا أخيرًا! لأنَّهُ وكما يبدو قبَضَ عشرات الأضعاف من جمعية المستوطنين، فيا حسرتَنا على أنفسنا إذ نجعل من كُلِّ هزيمة فعليَّة انتصارًا وهميًّا نقنع أنفسنا به».

قرأْتُ بعنايَة شديدة وذُهولٍ ما كتَبَهُ أبي قبل سنوات طويلة عن القضية التي نحارب أنا وزوجي نبيه للدفاع عنها اليوم، وربَّما كان هذا التاريخُ المُلَخَّصُ في ورقتين كافيًا ليفتحَ عينيَّ على حقائقَ لم أعرفْها مُسبَقًا، ناديْتُ نبيه فورًا وقلت له:

- شوف شو كاتب حماك الله يرحمه، المحامي كوهين مش حاكيلهم في هداك الوقت إنّو المستأجر المحمي لازم يدفع إيجار حتى لو كان رمزي، ومش مْفَهِّمْهُم إنُّه بقدروش يْغيروا أيّ شيء من معالم البيت، والجماعة مش فاهمين إنو بزْبُطشْ يختلفوا بينهم وبين بعض أو يبيع أي واحد فيهم حقه في عقد الاستئجار المحمي لجهة خارجية، وكانوا بفكروا حالهم انتصروا للأبد على المستوطنين مش إنو الإيجار المحمي بينتهي بإخلال أي شرط أو بموت آخر واحد ولِد في البيت أو خروجه منه برغبته!

نبيه! خلينا نشوف المحاميين والجيران اليوم بَرْكي بنفع نوضح للمحكمة إنُّو كوهين خدع الناس وضحك عليهم!

نظر إليَّ نبيه وردَّ ببرود شديد:

- حبيبتي؛ المستوطنين بلَعْبوش، وأكيد عندهم كل هادا التاريخ ومْرتّبين أمورهم منيح، والقانون بحميش اللي مش فاهمين! وتنْسيش إنهم صبورين جدًّا وبخططوا لكل إشي، وإحنا ع بركة الله. هم ما أطلعوا أي أحد من بيته إلا بعد ما خالف قانون الإيجار المحمي، وهادا ما صار إلا بعد الانتصار المزيف بربع قرن على الأقل، يعني بعد ما سقط حق الاستئناف والطعن باللي عمله كوهين بعشر سنين!

ثم أضاف باهتمام وكأنَّ الوحي نزل عليه:

- جيبي هالشنتة والأوراق لنشوف، بركي لقينا جواب للسؤال الأكبر، ليش حكومة الأردن وأثناء فترة وصايتها على الضفة والقدس ما «طوَّبَت» وسجلت البيوت باسم السكان في السنين ما بين سنة الـ 1959 والـ 1967م، حسب الاتفاق مع وكالة الغوث؟ لأنه أصلًا هاي البيوت بنَتْها وكالة الغوث بالاتفاق مع الحكومة الأردنية في حينه

على أراضي الدولة لتوطين اللاجئين في العام 1956م، واتّفقوا أنه بعد تسليم البيوت للناس بثلاث سنوات يتم تسجيلها بالطابو باسمهم.

والله يا حوريَّة لو صار هيك كان كل الموضوع انتهى بحينه!

بحثنا جيّدًا في الأوراق، وأصبَحنا نصنِّفها كخبراء وثائق تاريخية حسب التاريخ والأقدمية والأهمية، وجدنا ضالّتنا بعد عناء كبير، رسالة مؤرخة في بداية الستينيات يطلب فيها وزير التعمير والإسكان الأردني من مجلس الوزراء تخصيص مبلغ من المال لتسوية الأراضي والبيوت في الشيخ جرّاح، وتطويبها في دائرةً الأراضي باسم السُّكان، وَكأَنَّهُ يتنبأ بالخطر المحدق، ولكن لم نجد أي شيء آخر غير هذه الورقة، والتسجيل بالطابو لم يحصل حتى النكسة عام 1967م ولا ندري حتى اليوم ماذا كانت المعيقات!

الفصل الرابع:

المغارة

إتسڤيكا 2: كل ما في الأَرْض
سوف يشير لنا، سواء بالحق
أو بغيره!

تجمهر حولنا العشرات من الشباب اليافعين منذ أن وَطِئَت أرجلُنا أَرْضَ المستوطنة، كانت هذه زيارة تاريخية لقائد صاعد يترشح لأول مَرَّة لانتخابات الكنيست ليمثل الصوت اليهودي الصهيوني المتدين تحت قُبَّة البرلمان، فرُبَّما إنْ فُزْتُ بمقعد، وانضممتُ للإتلاف الحكومي القادم سوف أصبَح وزيرًا للجيش، فأُطلق يَدَ مجلس المستوطنات والمستوطنين الأشاوس في يهودا والسّامرة (الضفة الغربيَّة) أكثروأكثر، أوإنْ اختاروني وزيرًا للماليّة سوف أخصص الموازنات الأكبر للتوسع الاستيطاني، وأضمن بناء الوحدات السكنية شبه المجّانيَّة لجحافل الشباب من حولي، وبذلك فإنهم سيحملونني على الأكتاف.

تقدم إليَّ أحد الشباب ولم يتجاوز الثامنة عشر من العمر حاملًا بيده ميكروفونَ لاسلكيًّا وقال:

- خطابك يا سيدي.

إنه أول خطاب لي أمام جماهير شابة، اعتدلت في وقفتي، وشددْتُ قامتي، وانتصَبْتُ متباهيًا بمركزي الجديد، عدّلْتُ من طاقيَّتي «الكيباه» التي ثبَّتُّها «ببُكلة» صغيرة بشعر رأسي الخفيف، أعدت الطاقية إلى مكانها الصحيح وكبست البُكلة، نظرت إلى رونيت وحرَّكْتُ رأسي بطريقة تُفهمُها أنَّ عليها أن تجد النساء، وتقف بينهنَّ، وألا تبقى بين الشباب، أمّا إلعاد السائق، فقد بقي ينتظرنا في السيارة، ولَم يبق حولي إلا الجار يوناتان الصغير الذي أصرَّ على مرافقتنا إلى هنا، ليتعلم كيف يصبح حُرّاسُ مغارة الأجداد ممثلين للشعب.

أخذت الميكروفون وقررتُ أن أبْدَأَ بالتصعيد، وشتم المُخرِّبينَ، كي يفهموا أنّي معهم، وبمجرد أن فتحت فمي حتى ساد الصَمت بين الشباب فشعرتُ بمسؤولية أكبر:

- يا شباب التّلال، ويا شباب اللهيب (تنظيم اللاهافا)، «ماقت لمخبّليم» الموت للمخربين، والموت لمن معهم.

خرج صوتٌ من بين الجمهور يهتف « الموت للعرب» فأوقفْتُ الخطاب، وقلت: «الموت للمخربين»! استفزَزْتُ الشباب الأرعنَ رغمًا عنّي، ولكنّي كنتُ أرى العشرات من الهواتف الذكية تصوِّرُني، وتبثُّ مباشرةً على شبكة الإنترنت، وأي غلطة ممكن أن تبعدني عن كرسي البرلمان، لذا فَضَّلْتُ مشاكسَةَ الأولاد العنيفين قليلًا على أنْ أخطئ سياسيًّا، وبالرغم من أنني أصبَحت مؤمنًا بنهج الحاخام مئير كاهانا، إلا أنه أصبَح من الصعب الآن التصريح بذلك في الإعلام، وأكملتُ بعد أن قفَزَ يوناتان إلى الشاب الذي هتف بالموت للعرب وأخذه ليفهمه أن الوقت الآن ليس ملائمًا لهذا الشعار، والتكتيكُ مُهِمٌّ، وأنَّ عليه أن يسكت، لأنَّ تعويضَهُ قادمٌ بعد الخطاب، وكل شيء له ثمن!

غَمَزَني يوناتان من بعيد مشيراً إلى أنَّ الموضوع مع ذلك الشاب قد تمَّ، فقرَّبْتُ الميكروفون إلى لحيَتي الطويلة التي أطلقتُها مُؤخرًا بعد اكتشافنا للمغارة حتى يكتمل المشهد، وأكملْتُ الخطاب قدْحًا بالعدوِّ الإرهابيّ، وقلت:

- نحن لم نأخذ أيَّ شيءٍ من الفلسطينيّين، فلْيَشْكُروا الرَّبَّ أنهم مازالوا هنا، وفي حرب الأيّام الستة عام 1967م هَجَمَتْ علينا الدولُ العَرَبِيَّةُ بدون سبب، ولكن بدافع اللاسامّية وكرهِ اليهود؛ لأنَّهم يهود، فنجحْنا بالدفاع عن أنفسنا واستعدْنا يهودا والسّامرة التي كانت تسمّى الأردن، وصحراء سيناي «سيناء» التي كانت تسمّى مصر، ولم نأخذ أيَّ شيءٍ اسمه فلسطين، فمن أين جاء إلينا أولئك البدو الذين يسبحون في المجاري ويعتقدون أنّها أنهارٌ من العسل كانت لهم!

نظرت بكل واقعية وجديّة للجمهور في المستوطنة الحديثة، فذكّرتُ الشبابَ أنَّ المسيحَ المنتظرَ لن يعود إلا عندما يحفظ كلُّ يهود العالم حُرمةَ يوم السبت، وأنَّ عليهم أنْ يُصَلّوا ويكونوا صدّيقين، ولكن في الوقت نفسه ألا يسمحوا لهؤلاء العرب البربر أن يرتاحوا ولا أن يأمنوا، وأن يشكلوا المجموعات المسلحة طيلة الوقت ليحموا المستوطنات ويوسعوها.

وقبل انتهاء الخطبة الانتخابية، قررت أن أُسمع العالم ارتباطي الوثيق بالحلم اليهودي أكثر من اليساريين مُدّعي الثقافة، فقلت في نفسي سوف أستخدم أسماء المفكّرين والشعراء بالرغم من أنني لا أعرف عنهم إلا الاسم، ومن المؤكد أنَّ هؤلاء الفتية درسوا عنهم في المدارس، ولكنَّهم لم يقرؤوهم أبَدًا، فرفعتُ صوتي مناديًا:

- يا حرَّاس إسرائيل، يا أحفادَ هرتسل وجيبوتنسكي وحييم بيالك الشاعر الوطني الأول، لقد سهَّلَ لنا أسلافُنا وحكماؤنا الطريق، وضَلَّ بعضُنا عن حلم إسرائيل، ولكنْ إنِ انتخبْتُموني، فسوف نُحيي حلم إسرائيل بين النيل والفرات، ولكن هذه المَرَّة بالتوراة، وبحكومة يمينيّة حُرَّة، سوف نعود ونتشبَّثُ بالتوراة، ونحققُ ما طلبه الله منا بألّا نترك أَرْضَ الميعاد.

نزلتُ عن المنصة، فأشار إليَّ يوناتان أنْ أتبعه، فقد رتَّبَ لي ما اتفقنا عليه، دخلْتُ خلفَهُ إلى أحد البيوت المؤقتة «الكرافانات» المصنوعة من الصاج والبلاستيك المقوّى، وقد أحضروا تلك الكرافانات على الشاحنات، وأقاموا مستوطنة لـ ثلاثين عائلةً خلال أقل من يومين! كان قادة مجموعات «تدفيع الثمن للعرب» ينتظرونني في الكرافان هناك، أخرج يوناتان كيس المال أمامهم ودسّه في يدي بطريقة بهلوانيّة لافتة للجميع، فقمت بدوري بالاقتراب من الشاب الذي صرخ واعترض في الخارج، وكان كما يبدو زعيمهم الأرعن، فوضعت المال في الحقيبة السوداء التي كانت تلتف حول خصره، وأنا أهمس في أذنه:

- كيسف زيه شلاخمّ «هذا المال لكم»، اشتروا فيه الأسلحة من السوق السوداء، ادفعوا لضبّاط الجيش، وحراس مخازن الذخيرة ليبيعوا لكم كل شيء مقابل المال كما يفعلون مع تجار السلاح، ورجال العصابات، انتبهوا ألا تستخدموا سلاحكم المرخّص في أية عملية مُهمَّة حتى نحقق أهدافنا، وندفع العرب ليهاجروا، ما تشترونه من أسلحة غير قانونية فهي للعمليات الجماعية ضد العرب، وسلاحكم المرخص هو لقتل أي مخرّب تشتبهون أنَّ لديه نيّةً ولو واحد بالمئة لمهاجمتكم، ولا تقلقوا من السجن والتحقيق، فنحن سوف نكون في دهاليز المحاكم ندافع عنكم، أخيم شلي «إخواني» الآن فترة انتخابات، ولا نريد للمنافسين وبعض ضعاف النفوس في الأحزاب المنافسة أن يستغلوا أيَّ دليل ضدَّنا، بل نريد أن يفهم المستوطنون أنّنا وحدنا من يحميهم، فينتخبوا حزبنا فقط!

نظرت إلى وجوههم بهدوء، وحاولْتُ أن أستحضرَ ملامحَ الحكمة والعمق حتى يثقوا بي أكثر، فقط شاركتُ في دورة عبر الإنترنت في جامعة مرموقة كانت قد أطلقت بعد وباء الكورونا منصة إلكترونية لتعليم القيادة اسمها «يو آر ليدر» أنت قائد، فاستكملت الدورة بالكامل، وشاهدْتُ فيديوهات اللقاءات جيّدًا، وطبَّقْتُ ما تعلَّمْتُهُ لأول مَرَّة مع هؤلاء الفتية، فمددْتُ يدي المفتوحة بشكلٍ استعراضيٍّ، فَهِمَ الحضورُ فورًا أنَّ عليهم التفاعل معي، فوضعوا بحركة غير إرادية أيديهم فوق يدي، وقلتُ لهم بصوتٍ رخيم، كما قال هرتسل يومًا: «إنْ أردتم... فهي ليست خُرافة».

انتهى اللقاء ونجحتُ بالامتحان، ركبْنا السوبارو خاصَّتنا، وعُدْنا أدراجَنا لأورشليم قبل حلول الظلام، كانت الأمور هادئة نسبيًّا على الطريق، ولكن رونيت لم تسمح لي بالراحة أبَدًا، وقررت إعطائي

محاضرة «لا معنى لها» حول الصهيونية الحقيقية وتراث هرتسل وأحلامه، وكانت وكما يبدو قد لعبت دور المفتش كونان، وسجلت على هاتفها الذكي جميع الملاحظات والأخطاء التي وردت في خطابي أمام جمهور المستوطنة -حسب رأيها طبعًا-، هززت برأسي طيلة الطريق وهي تتحدث بنبرة صوتها الحادة؛ لأنَّ آخر ما أريده الآن هو صراع مع رونيت حول أي شيء، وخاصة أمام سائقي وشريكي السّرّي في الصناعة والتجارة، ولم أصغِ لأيَّة كلمة قالتها حتى تمادت في نقدها وفلسفتها حول الصهيونية الحقيقية، وافتعلت شجارًا مع جارنا يوناتان كادت أن تفضح أمر المغارة أمامه! فاضطررت أن أوقفها عند حدِّها، وعاد الصمت إلى قُمرة السيارة.

أوصَلَنا إلعاد إلى بيتنا الجميل في الشيخ جرّاح، والذي سكنَّاه أنا ورونيت بعدَ أن منحتْهُ لنا جمعيةُ الاستيطان الدينيَّة الوطنيّة «نحلات شمعون» أي ملكية شمعون نسبةً إلى الروايةِ اليهوديَّة بوجود قبر الصديق شمعون وتلامذته في مغارة تقع في حيِّ الشيخ جرّاح، والذي أصبَح مقصدًا دينيًّا يهوديًّا، وتؤسِّسُ له هذه الجمعية التي تعمل على تحرير بيوت اليهود من العرب الذين يبيع البعض منهم أيَّةَ حصَّة ورثوها عن آبائهم، سواء مباشرة أو من خلال وسطاء من بينهم للجمعية الاستيطانية، ويحصلون على أرقام فلكيَّة مقارنة بقيمة العقار، فالمال لن يقف يومًا عائقًا أمام تحقيق الحلم الصهيوني بالعودة إلى أرض الأجداد، نحن من اخترع لعبةَ المال، وسَيْطَرْنا على بنوك العالم بالخفاء والعلَن، أما البيوت والعقارات في أورشليم فهي لا تُقَدَّرُ بثمن بالنسبة لأيِّ يهوديٍّ مؤمن، وكلِّ صهيونيٍّ أصيل، فقد ارتبط اسم هذه المدينة بالشعب اليهودي منذ الأزل، وورد اسمها 669 مَرَّةً في كتابنا المقدس «التناخ» والذي يجمع كل النصوص المقدسة وهي «التوراة والأنبياء والكتب أو المخطوطات» في كتاب واحد.

نعم! لقد توزع ذكر أورشاليم على عدَّة نصوص مُقدَّسة، ومنذ أصبَحتُ أرتاد اليشيفاه «المدرسة الدينيَّة» بانتظام لأجل الحصول على بيت من بيوت العرب، تعرَّفتُ أكثر على الدين وتعاليمه، وعلمتُ أنَّ أورشاليم لم يرد اسمها بوضوح في أيِّ سِفرٍ من أسفار التوراة القديمة الخمسة التي نزلت على موسى قطّ، وهي سِفر التكوين والخروج واللاويين «الأحبار» والعدد والتثنية، بل تم إدراجها مئات المرات لاحقًا في الكتب المكمّلة للتناخ؛ وهي الأنبياء والمخطوطات، ولكن ما يُطمئنُ بعضَ الشيء أنَّ التفسيرات تدلُّ على أنَّهُ تمَّ الرمز لأورشاليم بأماكن عديدة دونَ أن تُذكَرَ بالاسم في أسفار موسى، وهي كتاب التوراة.

قلت لنفسي:

- «أوي فاي فوي» يا مصيبتي لو يعرف العرب هذه المعلومة لطنطنوا فيها كثيرًا!

كنت قد وضعتُ خطةً للتقرُّب من الحاخام أفنر المسؤول عن «اليشيفا» المدرسة الدينيَّة الخاصة باليهود الأشكناز وأغلبهم من السويسريين كما زوجتي وأهلها، وكان الحاخام أفنر أيضًا من قادة الجمعية الاستيطانية نحلات شمعون التي تُحَرِّرُ بيوتَ الشيخ جراح، وتمنحها للعائلات اليهودية، ولذلك طلبْتُ من حماي أن يكون الحاخام أفنر مَنْ يُزَوِّجُنا أنا ورونيت ليتذكَّرني عندما يحين الوقت. رفضَتْ رونيت الطلبَ من والدها أن يُدخلَني إلى اليشيفاه بعلاقته مع الحاخام، وبقيتُ لفترة طويلة أتحايلُ عليها، وأقنعها أنَّ هذه الطريق الوحيدة لأكون بخير ونحقق أحلامنا، وبعد أكثر من عام ونصف ونحن نأكل وجبة دخول السبت لدى بيت حماي قلت لأبيها:

- «أدوني» سيدي دكتور إرليخ، حماي العزيز «يش لي بكاشاه إليخا!» لدي طلب منك!

قفزت رونيت عن الكرسي واحمرّ وجهها الأبيض، خبطت على الطاولة بيديها الاثنتين ووبختني أمام الجميع:

- إتسفيكا إنّنا بقدسيَّة السبت، فلا تجرُؤْ على طلبِ المال أو الأعمال، فإنك بذلك تُغضب الرَّبَّ...

ولكني تماسكت، ولم أتراجعْ أو أتنازلْ أمامها، ووجَّهْتُ كلامي لوالدها:

- هل ترى يا سيدي؟ حتى عندما أجد طريقي إلى الله وأنوي أن أطلب منك أن تساعدني بدخول اليشيفاه لدى صديقك الحاخام أفنر، أجد رونيت تصرخ بوجهي هكذا!

لم تستطع رونيت أن تنبس ببنت شفة، ولم أعد بحاجة إلى واسطتها، فإنها بِرَدَّة فعلها ساعدتني كثيرًا، وعزَّزتْ موقفي، فوافق والدها على الفور، وخلال أقلّ من أسبوع بدأتُ بارتياد المدرسة الدينية يوميًّا للصلاة والدراسة.

ولكني لم أنتبه إلى أنَّ معرفةَ الحاخام بحمايّ، ومَنْ تكون زوجتي سوف تكون العقبة الكبرى لإثبات أحقيتي بالحصول على أحد البيوت المحررة من العرب، فأخذتُ بالتقرُّب إليه شيْئًا فشيْئًا لإقناعه أولًا بأنّني من «الحسيديم» الورعين، وعملت على إيصال رسائل مبطَّنة خلال أيِّ حديث معه تشير إلى أنني من اليهود الذين يستحقون أحد البيوت، حتى ولو كان حماي ميسور الحال قليلًا، فأنا لا أقبل منه أيَّةَ مساعدة، ومن ناحية أخرى أظهرتُ له كلَّ الحزم والتطرف اتجاه الغوييم «الأغيار»، وأنّنا أنا ورونيت أقوياء بإيماننا وصهيونيَّتنا لنواجه كُرْهَ الجيران، وربَّما اعتداءاتهم علينا، بالرغم من أنَّ الجمعية لديها سياسة تفرز بموجبها حراسًا مسلحين لكلِّ عائلة يهوديَّة تسكن في بيوت العرب

المحررة في الجزء الشرقي من مدينتنا، إلا أنَّني كنت لا أوفِّرُ أيَّةَ فرصة لأذكر أنَّ لديَّ رخصةً لحمل السلاح، وأرمز للحاخام أنه يمكنه أن يوفر راتب حارسٍ مسلَّح لي ولعائلتي، إن مَنَحَني بيتًا لأحافظ عليه وأجعل منه بيتًا من بيوت إسرائيل.

كما وحرصت أن أزور قبرَ الصدّيق شمعون مشيًا على الأقدام للصلاة بعد خروج السبت من كل أسبوع، لمعرفتي أنَّ الحاخام أفنر يلتقي بقيادات جمعية نحلات شمعون هناك، فألقي التحية على الجميع، وأبدأ بالتذمُّرِ أمامهم على تكاليف الإيجار في حيِّ «المئة شعاريم» الذي نسكنه أنا ورونيت، والذي يبعد عن الشيخ جرّاح بعض مئات الأمتار فقط، وأخبرهم أننا لن نرحل عن أورشليم القدس لأيِّة مدينة أخرى؛ لأنَّ المتديّنين الوطنيّين هم من يحمون أورشاليم، ويبقونها مُلكًا خالصًا لنا، فنحن هنا نلامس «الكوتل» الحائط الغربي للهيكل، وأقرب إلى السماء من أيِّ مكان.

إنَّهُ عناد الماء والإصرار البطيء اللذان جعلانا على رأس قائمة العائلات المتدينة الوطنية التي تستحق منزلاً مُحَرَّرًا لدى الجمعية، وهكذا وعدني الحاخام أفنر بأوَّلِ منزل يتمُّ تحريرُهُ، وبعد أحدَ عشرَ شهرًا، وفي لقاء ما بعد السبت، نظر إليَّ أفنر، وقال:

- إتسفيكا «بني هايَكار» ابني العزيز، «مَزال طوف» مبروك، نجح محامينا بالحصول على أمرٍ من المحكمة بإخراج امرأة عَرَبيَّة عجوز تسكن في بيت كبير هنا في الشيخ جراح، بعد أن اشترينا جزءًا من المنزل من أحد الورثة بواسطة سمسار منهم، ودفعنا أضعافًا مضاعفة، إنه يليق بك وبرونيت، بلِّغْ حميكَ، وأوْصِلْ سلامي له.

لقد صبَرْنا صبرًا جميلًا، وانتظرْنا بيتَنا كي يتحرَّرَ ببطء، كان مبدأ الجمعية أننا لا نريد مواجهاتٍ صعبةً؛ أي نشتري بالمفرَّق وليس بالجُملة!

وفي كلِّ يوم كُنتُ أتودَّدُ للحاخام، وأطلبُ منه أن يضغطَ على محامي الجمعية ليُسرِعوا في إخلاء البيت، وطرْدِ العربِ منه لنَسْكُنَهُ نحن، وكان يرد مستهترًا:

- «سافلانوت» الصَّبْر يا إتسڤيكا، العرب سوف يخرجون سواء بالمال أو بمحاكمنا أو بكليْهما!

وكنت أرُدُّ عليه قائلاً:

رُبَّما إغراؤُهم بالمال أسهل، لندَع العربَ يستمتعوا بالمال وأوراق النقد التي يطبعها أغنياء الشعب اليهودي من حول العالم، ويعطونهم أضعافًا مضاعفةً من الثمن المستحق لعقاراتهم ليتركوها لنا، فهم بكل حال لا يعرفون قيمتها!

كانت مخططات الجمعية الاستيطانية - كما يبدو- أكبرَ من أحلامي بالسَّكَنِ المَجّانيِّ فقط، ومع الوقت والأحاديث فهمْتُ أنَّ الهدفَ ليس فقط أن يحصلوا على المال ليتركوا البيت، بل أيضًا ليهاجر العرب من القدس وإسرائيل، وليبقوا بعدها مشرَّدين أينما حَلّوا، فثقافتُهُم لا تقبل الخَوَنَةَ، وهم ينظرون للموضوع بطريقة مختلفة تمامًا عنّا، لدرجة أنَّ بعضَهُم من الممكن أن يُضحّي بحياته لتبقى عائلته في بيته، ولديهم مفهومٌ غريبٌ يُسمّى العرض، ومهما حاولْتُ فَهْمَهُ فلن أتمكَّنَ من ذلك، حيث إنَّ أهداف تحرير البيوت من العرب، والاستيطان بها ليس فقط لاستبدال اليهود بالعرب، بل أيضًا التخلُّص ممن كان يسكن في البيت إلى الأبَد، واقتلاعه هو وذريته بلا رجعة وبدون عناء، والأولَويَّةُ أن يتمَّ ذلك بمبادرته ورضاه، ومقابل بعض الأوراق المالية التي لا قيمة لها مقابل أورشليم، فمن يمتلك الحجر يحافظ على البشر.

استلمّنا البيتَ من الجمعية تحت حراسة شديدة، وبعد بضعة مناوشات مع الجيران، ورعب كبير أن يتعرض أحد أبنائنا للأذى، مرَّت الأيّام الأولى بسلام، ولكن البيت كان قديمًا ومُهمَلاً، ولم يقم أحد بصيانته على مدار سنوات عديدة كما يبدو، بدأنا بهمَّة ونشاط عمليات ترميمه، وتحضيره لسَكَن أَهْلِ أَرْضِ إسرائيل الأَصليين، وقد حاوَلْنا قَدَرَ الإمكان إدخالَ الطابعِ الأوروبيِّ الغربيِّ على البيت العربيِّ، حتى نحافظَ على أصالته وعراقته، ونتسبها لنا بطريقة أو بأخرى، فبعد قَرْن من الزَّمان لن يعرفَ أَحَدٌ أنَّ بعضَ العربِ البرابرة المُخرّبين سَكَنَهُ، أو أنْ يكون أحدٌ منهم قد بناهُ أصلًا، إنَّهُ جوهرةٌ نادرةٌ كساها الغبارُ عبر الزمن لعدم تقدير مَنِ امتلَكَها، أو لجَهْلِه بقيمتها، البيت مبنيٌّ من الحجر المقدسي «يروشالمي» الجميل، سقفه مرتفع، وجدرانه سميكة جدًّا لتعزل الحرارة والرطوبة، وفي زواياه زخرفات من الفنِّ القديم، هم يقولون عنه فنٌّ إسلاميٌّ، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّهُ لليهود أيّام وجودهم في القدس تحت حُكم الرومان قبل ألفي عام، أَرْضيةُ جميع الغُرَف مُزَرْكَشَةٌ بالبلاط القديم المُلَوَّن، وجميعُ غُرَف النوم في البيت لها سقفٌ مع قُبَّة، وَكأَنَّها ترتدي «الكيباه» الطاقية اليهوديَّة.

بدأنا العمل والترميم بمرافقة دورية مخصصة لنا من قوات حرس الحدود، وفي أوَّل زيارة لضابط المخابرات «الشين بيت» المسؤول عن المنطقة حَذَّرَنا من جيراننا العرب، وبالذات من شخص «متذاكي» يفهم القانون الإسرائيلي، ولا يتهوَّرُ بأفعاله، بل لديه من الصَّبر ما لدينا وأكثر، اسمه «نبيه»، قال الكابتن:

- إتسفيكا أنت جديد هنا، ولا نريد أن تُفجّرَ لنا قنابل، اعْمَلْ بِصَمْتٍ ودهاء، ليس لدينا وقت لسخافاتك.

أجبته بهدوء، وكما أوصاني الحاخام ومدير جمعية نحلات شمعون ألا أتصادم مع أجهزة الدولة، فلم يأت دورُ هذا الصدام بعد:

- «أدوني» سيدي، قنابل بوجه العرب، إنَّهُ لَشيءٌ جميل.

ضحك الضابط وقال:

- ليس كل العرب كما وصفوهم لك، أنت هنا بينهم، وهذا الذي بجانبك لا تقوده المشاعر والعواطف، فلدينا معه تجارب كثيرة لم نستطعْ فيها احتواءَهُ أو إقصاءَه!

طَبْعًا، لم أُعِر الضَّابطَ أيَّ أهمية، نظرتُ إلى رونيت التي سرحت بكلامه، لأنها عملت مع هذا الـ «نبيه» في شركة توزيع الجرائد في الماضي، بانت وَكأَنَّها تستحضر مواقف له تثبت كلام الضابط، استفزتني نظرتها وسرحانها وبيدها المكنسة تترنح يمينًا وشمالًا، صِحْتُ بها:

- رونيت «ما كاراه» ماذا حصل؟ العرب هم العرب، تافهون، ومهما نَظفوا أو اغتَنَوْا، فالجهل والتخلُّفُ بدمائهم، ومَنْ هو هذا نبيه لأخافَ منه، سَيقضي على نفسه بنفسه، ويكفي أن يرمي علينا قشَّةً لأدَّعي أنها قنبلة نوويَّةٌ وأرميه في السجن إلى الأبَد، وهل هناك عربيٌّ يُفَكِّرُ قبلَ أن يفعل أيَّ شيء؟!

صمَتَ الضابطُ، حيثُ شَهدَ على تعنيف زوج يهوديٍّ لزوجته، ولكنَّهُ لم يُطِلْ أو يُعَقِّبْ، بل حذَّرَني مَرَّةً أُخرى. وقبل أن ينصرفَ قلت له:

- لا تنسَ أنَّ لديَّ رخصةَ سلاح!

تَوَتَّرَت الحالةُ لبضع دقائقَ في البيت؛ لأن رونيت كانت تكره تلويحي الدائم بالسلاح، وتصف ذلك بتخلُّف الشرقيّين وعنفهم، فقرَّرْتُ ألا أغوص مجددًا بشجارٍ معها، بل فكَّرتُ بأن أزيدَ من صَخَبِ الأعمال لتغيُّرَ معالمَ المنزل بسرعة، كنت قد اتَّفَقْتُ مع أحد المقاولين أن نُزيلَ

جدارًا، ونحفر قليلًا تحت ساحة المنزل الخارجية لنوسِّعَ المطبخ الصغير تحتها، وأصررتُ أن أتعاقدَ مع مقاولٍ يهوديٍّ بالرغم من أنَّ أسعارَ العرَبِ أقل، ولكن جاء الأخير مع عماله فوجدتهم كلَّهم من العرب، وبعد الحديث السابق مع الضابط والصراخ على رونيت كان آخر شيء ممكن أن أتقبَّلَهُ هو وجود العرب في بيتي، نظرت إلى «ماتي» المتعهد وهو بالحقيقة متتياهو الأخ الأصغر لسائقي إلعاد، ويختصر اسمه لماتي ليُجاري أولئك العلمانيين، ويُستفزُّ حين يناديه أحدٌ باسمه كاملًا، فناديته كما يكره:

- متتياهو! «أين لخا يهوديم لملاخاه؟» ليس لديك يهود لهذا العمل؟

- ضحك ماتي بجنون، وقال:

- لو كان العُمّالُ يهودًا لما بنينا ولا مستوطنة في أَرْضِ إسرائيل يا إتسڤيكا!

- أنت أكيد تمزح؟ سألته باستغراب فقال:

- نحن نفكر وهم يفعلون ما نريده بجودة عالية، وبسعر أرخص يا أخي.

أقنعني ماتي بكلامه، ولم تكُنْ لديَّ فرصةٌ أن أجبره على استبدالهم، وبذلك أذعنتُ لحقيقة أنّني سوف أقضي الأيّام القادمة مع عُمّالٍ عَرَبٍ في بيتي الذي كان يومًا لأَهْلِهم أو أقاربهم، بدأت الأعمال بسرعة، وبالفعل كان الشباب العرب يعملون بِكَدٍّ مبالغ فيه، وصدقًا لم أعرف لماذا يتفانون بخدمتنا؟ ما هي تلك العقدة التي يُخفونها! فنحن نستوطن دورهم، وهم يعملون لأجل توسيع مطبخنا، هدموا الجِدار الصغير بسرعة غير معقولة، وبدأوا الحفرَ لتوسيع المطبخ، وبعد عدة ضربات بالمطرقة الضخمة كانت المفاجأة!

انكشَفَت أمامنا مغارةٌ مَخفيَّةٌ خلف الحائط، ومن حُسْنِ حظي أنّي كنت أراقب العمال بعد أن غادر «ماتي» إلى أعماله الأخرى، وحين تبيَّنَ أنَّ ما خلف الحائط ليس إلا تجويفٌ صغيرٌ بالصَّخرِ المَقدسيِّ العريق، على ما يبدو أنها مغارة مغلقة عن قصد منذ سنوات طويلة. طردْتُ العُمّالَ العرب فورًا، بعد أن دفعْتُ لكُلٍّ واحد فيهم مئةَ شيقلٍ خارج الحساب مع ماتي، وطلبْتُ منهم ألا يُخبِروا أحَدًا باكتشاف المغارة، ولا حتى معلمهم «ماتي» فَرُبَّما أجدُ كنزًا في الداخل، ولا أريد أن يقاسمني فيه أحَدٌ.

أتمَمْتُ العملَ وحدي، وفتحت بابًا في الحائط يكفي لدخولي إليها، ناديْتُ رونيت كي تحملَ الكشّاف الكهربائي لتضيءَ أمامي دون أن تدخلَ معي طَبْعًا، لأنَّني لن أقاسمَ رونيت أيضًا ما قد أجده، وبالرَّغم من طبعها الفضولي وطمعها، إلا أنَّني أقنعتها أن تقف خارج المغارة خوفًا عليها من أيِّ شيء ممكن أن يظهر، بدأتُ أتفقَّدُ المكان، ولم يكن برأسي إلا القصص الخياليَّةُ التي قرأتها وشاهدت بعضها بأفلام سينمائية، لا بُدَّ أن أجد جثَّةَ أحدهم في الزاوية، وأجد بجانبها صندوقَ ذهَب أو آثارًا نادرةً تجعل مني مليونيرًا جديدًا، قلتُ لنفسي والابتسامة تقفز إلى وجهي، وأنا أتمتم:

- سوف أكبتُ نفسي، ولن أُظهِرَ ثروتي أمام الناس فورًا، ورُبَّما من الأفضل أن أصرف من ثروتي الجديدة التي أنعمَ عليَّ الرَّبُّ بها بالتقسيط المُملِّ فلا أحدَ ينتبه. ولكن رونيت تافهة، وتعشق المظاهر، وهذا التكتيك لن يرضيها! أو رُبَّما يجب ألا تعرف شيئًا، سأقنعها بأنَّ اليشيفاه خصصت لي راتبًا شهريًّا كبيرًا من أجل تعليم المتديّنين الجدد كيف نخدمُ أرْضَ إسرائيل، ونعمل «متسفوت» الخيرَ، ولكن هل ستصدقني يا ترى؟ رُبَّما نأخذ الأولاد ونهاجر إلى أمريكا لنبني حياة هناك في منهاتن، وننضمَّ إلى كنيس كبير هناك، وربما أيْضًا نتبرَّعُ ببعض المال هنا وهناك حتى يصبحَ لنا مكانة بين يهود أمريكا!

سوف يكافئنا الرَّبُّ بهذه الهديَّة لتحريرنا أَرْضَ صهيون، وحمايتها من العرب الدخلاء، ويمنحنا كنز المغارة المقدسة، ولن يعودَ بعد ذلك أيُّ شيءٍ يربطنا بهذه البلاد الدمويَّة المليئة بالصّراع والتعب، سوف نعيش بهناءٍ وراحة بعيدًا عن هنا.

دخلتُ المغارةَ أبحثُ عمّا يجولُ في بالي، وما صرتُ أُبصرُهُ بقلبي ولا أراه بعيني، ولكنَّ خيبةَ الأَمَل كانت أكبرَ مما أتوقَّع، لم أجدْ شيئًا سوى مقعد حجريٍّ يبدو أنَّ أحدَهُم صَنَعَهُ بدَقٍّ الصَّخْر وتمليسه، وكان هناك ساريةٌ صدئةٌ ومحدَّبةٌ، وعلى رأسها هلالٌ أسودُ اللون من خشب الأبانوس الصلب، في الزاوية الأخرى كانت هناك بندقية قديمة جدًّا، وقد أكَلَها الصَّدأ لدرجة أنّني حين مسكتها تفتتت فوهتها بيدي، أَرْضُ المغارة كانت من الحجارة الملساء، وسقفُها كان منخفضًا لدرجة لا تسمح بالوقوف المعتدل، نظرتُ حولي بتمَعُّن، تحسَّسْتُ الجدرانَ الصَّخرية، والمقعدَ والسَّارية، رُبَّما يكون هناك ما لم أرَهُ أو أيُّ شيء مخبَّأ هنا أو هناك، ولكني لم أجد شيئًا بالرغم من أنني كدتُ أحفرُ الصَّخرَ بأسناني، وأمضيتُ في ذلك الشقِّ الصخريِّ ساعةً ونصف، وفي كل دقيقة كانت رونيت تحمل الكشّافَ الكهربائيَّ وتُشَتِّتُ عَقلي بالهُراء، وتخوِّفُني تارةً من الحشرات والفئران التي تتخيلها في المغارة، وتارةً أخرى بالأشباح والأرواح، وأنَّ هذه المغارة هي بلا شك قبرٌ قديم.

انهارت أحلام اليقظة أمامي، سقطْتُ على المقعد الأملس، وأمْسَكْتُ السّاريةَ بيدي، لَعَنْتُ حَظّي بيني وبين نفسي، وطلبتُ من رونيت التي تجمَّدَتْ مكانها أن تُديرَ كشافَ الضوء عَنّي، فلَمْ أَعُدْ أرغبُ بمغارةٍ مليئةٍ بالضوء الأصفر الباهت الذي يشير إلى خيْبَتي.

وفي حركة بَهلوانيّة ألقت رونيت المصباح الذي بيدها أَرْضًا، وصعدت الدرج راكضةً إلى حقائبنا وصناديق الكرتون التي جمعناها من القمامة

أمام السوبرماركت لنضع فيها متاعنا، بدأتْ تنبشُ فيها بهيستيريا لم أعهدْها من قبل، صعدْتُ خلفها تاركًا المغارة وما فيها أسألها عن حالها، وماذا جرى، لكنَّها لم تُجبْ، فوقفتُ بعيدًا أراقبُها حتى لا تشتُمَني كما هي العادة، تفتح حقيبة وتغلق أخرى، تنقلُ الكراتينَ من فوقِ بعضها البعض، تنظرُ لما هو مكتوب عليها وتعيدها مكانها، بَقِيَتْ هكذا قرابةَ النِّصف ساعة حتى وجدَتْ ضالَّتَها!

كانت حقيبة جلدية بنية رفيعة مع سحّاب غليظ أسودَ، حمَلَتْها بيَد، وسحبَتْني بيَدِها الأخرى إلى الغرفة التي اتفقنا أن تكونَ غرفةَ نومنا، وهي الوحيدة التي ليس لها أيُّ شُبّاك على الشارع، كنت متعبًا من الحَفْر، مُبَعْثَرَ الهندام، والترابُ والغبارُ يملآن لحيتي، أجلسَتْني بجانبها على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ رخيصٍ كان في البيت لمَنْ قبلنا، وهَمَسَتْ في أذني:

- كين إتسفيكا... ها نس كراه بعزرات هشم. (نعم يا إتسفيكا... حصلت المعجزة بمساعدة الرَّبّ)

أجبتُ باستخفاف، ولم يكن لديَّ أيَّةُ طاقة لرونيت وكلامها:

- رونيت... إيزه نس فإيزه بطيخ! (رونيت... أي معجزة وأيّ بطيخ).

أسهَبَتْ هي والدموعُ في عينيها:

- لقد فتح لنا الله بابَ الرِّزق، خُذْ هذه الحقيبة، وفيها مقتنياتٌ ورثَتْها أُمّي عن جَدَّتي، وفيها حجرٌ مبسّطٌ محفورٌ عليه نجمة داود، وقطعةُ فخّار قديمةٌ ملفوفةٌ بأوراق جرائدَ، وبعضُ القصاصات الورقيَّة مكتوبٌ عليها بالأحرف العبْريَّة كلماتٌ وآياتٌ من التَّوْراة، الأوراقُ تبدو قديمةً جدًّا، ولكنْ من غير المعروف من أينَ جمعَتْهُم جَدَّتي العظيمة الصِّدّيقة، كنتُ قد أخذْتُها مَرَّةً لأحد المختصين في الجامعة العبْريَّة، ونصَحَني ألا أري هذه المقتنياتِ لأحدٍ؛ لأنَّ سلطةَ الآثارِ سوف

تصادرها على الفور، لتُعْرَضَ في أحد المتاحف، ولن نستفيدَ منها، لذا فضَّلْتُ أن أحافظَ عليها بعيدًا عن أيدي الدولة، أخذتها من أمّي بعدما تقدَّمَ بها العمر، ولم تكُنْ تعرف قيمتها حقًّا، فقلت لها:

- إيما هايكراه أني إشمور عليهم إتسلي لزيكرون «أُمّي العزيزة سوف أحفظهم عندي للذكرى»!

- كان لديَّ دومًا الشعورُ بأنَّ كلَّ شيءٍ يصيرُ لسبب، وبقيَتْ هذه الحقيبةُ عندي حتى يفتحَ اللّه أمامَنا هذه المغارة!

بدأت الدموع تنهارُ بغزارةٍ من عيون رونيت وهي تصيح:

لقد جاءت الفرصةُ التي لا يستطيعُ أحدٌ تجاهلها يا إتسفيكا....

لا أحدَ على قيد الحياة اليوم ممَّنْ يعلمونَ بهذه المقتنيات، فجدَّتي وجَدّي ذهَبا لعالمها وتوفاهما اللّه، ووالدي لم يُمْهِلْهُ المرضُ كثيرًا، وتوفّي بعد زواجنا ببضع سنين، ولم يبقَ سوى أمّي العجوز التي كما تعرفها تعشق بنْتَيْها الوحيدتَيْنِ، ولن تكون عقبة أمام المجد الذي ينتظرنا! أما المختصُّ في الجامعة العبْريَّة فهو من العلمانيّين الذين لن يزوروا المغارةَ أبَدًا، وإنْ حصَلَ وزارَ وتذكَّرَ حين عرضْتُ المقتنيات عليه، فسنجدُ له حلًّا مناسبًا حينها، فلن يُصدِّقَ أحَدٌ من الحسيديم أي يهودي علماني غير متدين ولا يعمل «المتسفووت»؛ أعمال البر والخير، ويكذِّبَنا نحن حراسَ أورشليم!

لم أفهم ما ترمي إليه رونيت، وظننْتُ أنَّ المرأةَ قد جُنّتْ أو مَسَّها شيءٌ، فصرخْتُ:

- ما زيه كشور؟ (ما علاقة هذا؟) ماذا تريدين مني؟ ما علاقة مقتنيات جدَّتك بالمغارة، دعيني أرجع وأتَّصِلْ بالعُمَّالِ ليعودوا ونفتحها على المطبخ ونَزيل هذا المقعدَ الغبيَّ.

- تستوم إت هابيه شلخا، (أغلق فمك) واخفض صوتَكَ أيُّها المعتوه واسمعني. قالت بعصبية.

سوف نحرقُ أطرافَ الأوراقِ لتبدو أقدمَ ممّا هي عليه، وسوفَ نَدُسُّها بين شقوق صخر المغارة، أمّا المقعدُ الأملسُ فسوفَ نحفرُ على ظهره أحْرُفًا بالعِبْرِيَّة القديمة، فيبدو وَكأَنَّهُ مقعدُ أحد حاخاماتنا المُطاردين في أحد العصور التي مُنِعَ فيها اليهودُ من العيش في القدس، وسوفَ ندرسُ أنا وأنتَ التاريخَ جيّدًا؛ لنجدَ الاسمَ والفترةَ الأنسب، سوف تذهب إلى جميع حوانيت الآثار، وتجد لنا أقدمَ شمعَدان خشبيٍّ أو حديديٍّ صَدِئٍ تشتريه بالثمن البخس، وتأتي به لنضعه بطريقة ما أعلى السارية، وسوف نغلقُ البابَ الذي فتحتَهُ على المغارة من مطبخ البيت، ونواصل الحفر من الجهة الأخرى لنفتح طريقًا ودرَجًا يصعدان بنا إلى الحديقة الخارجية.

لقد أبدعَتْ رونيت وأخرجت ما لديها من ذكاء يهودي أصيل! لقد اكتشفنا للتوِّ مغارةً يهوديَّةً مُقدَّسَةً من أيّام حُكْم الفُرْس للقدس بين الأعوام 614م - 628م، وقد اخترْنا هذا التاريخَ بعنَاية شديدة، بحيث لا يستطيع المسلمون أو المسيحيّون إثبات عكس ادعائنا لانشغالاتهم بأمور أهمَّ في تلك الفترة القصيرة، فقد كان المسيحيّون مضطهدينَ في المدينة بعد هزيمة الفُرْس لهم في القدس واحتلالها، ومنعوا اليهودَ من العيش فيها، وفي هذه الفترة لم يكتبوا تاريخًا في القدس بسبب نكستهم هذه، أما المسلمون فقد كان نبيُّهم محمدٌ على قيد الحياة، وقد كان مركز الأحداث للدين الإسلامي في مَكَّةَ والمدينة، وليس في القدس، وخلال هذه الفترة حصل الإسراء والمعراج عام 621م (10 هجري)، وبوجود واقعة روحانيَّة ودينيَّة لا مثيلَ لها حسَبَ دينهم، فإنَّه لن يُفَكِّرَ أَحَدٌ بأيَّة تفاصيلَ صغيرة أمامَ ذلك الحَدَث العظيم، فمغارةٌ صغيرةٌ عاش فيها كاهنٌ مؤمنٌ، أو صدِّيقٌ مضطهد، لن تكون محلَّ اعتباراتهم.

تقول روايتُنا المُحْكَمَةُ إنَّهُ وبالرغم من قَمْع اليهود وتهجيرهم، فقد نجحَ حاخامٌ صدّيقٌ له أتباعٌ أقلاءُ من المضطهدين والمطاردين من

مواصلة العيش خارجَ أسوارِ المدينة المُقدَّسة، حيث كانت منطقة الشيخ جرَّاح بعيدةً ومُهملة، اختبأ الحاخامُ في هذه المغارة، وعاشَ وتعبَّدَ فيها، وأنَّهُ تمَّ إخفاؤُها عن الأنظار، وعملَ الغرباءُ على دفنها تحت باحة المنزلِ الذي تمَّ بناؤه بعد مئات السنين؛ رغبةً من العرب بِمَحْوِ آثارِ اليهود ومقدساتهم من القدس.

ما ينقصُنا الآن هو اسمُ الحاخام وكُنْيَتُهُ، وكان هذا أصعبَ ما في القصَّة، وبفكرةٍ جهنَّميَّة من رونيت قرَّرَتْ ألا نحسمَ الاسمَ، ولكن نتركُهُ للباحثين والباحثات لدراسة مقتنيات المغارة، والخوض في التفاصيل الدقيقة، لتبقى القضيةُ وقصةُ المغارةِ حيّةً في أروقة البحث الأكاديميِّ الدينيِّ، وبذلك يزيد الإقبال علينا، ويكون ذلك بمثابة دعاية متواصلة، وبما أنَّ المغارة في بيتنا وتحت سيطرتنا فلن نسمحَ لأيِّ باحث أو باحثة لا نثقُ بتوجُّهاتهم وبنتائجهم المستقبليَّة أن يدخلوا أو يدرسوا، وإنْ حصلَ وشكَّكَ أحَدٌ بقصَّتنا نهاجمُهُ في اليشيفوت « المدارس الدينيَّة» حتى لا يجرؤَ على المواصلة، وفي أسوَأ الأحوال نتهمُهم باللاسامّية ومعاداة اليهود، فينتهي الأمر!

كتبْنا قصةً طويلةً عن المغارة، وأخذْنا التراخيصَ اللازمةَ بعد الترتيب والتنسيق مع سلطة الآثار لحَبْك القصَّة ومنحها الإثباتات التاريخية المتينة، أصبَحت المغارة مزارًا دينيًّا مهمًّا في أورشاليم، يأتي إليها المؤمنون «الحسيديم» للصلاة في كلِّ يوم، وخاصة في الأعياد، يتركون التبرعات السخيَّةَ الفرديَّةَ والجماعية، وينتظرون رضا الرَّبِّ عن أعمالهم.

انتَشَرَتْ قصةُ المغارة في جميع أنحاء إسرائيل، وبين يهود العالم، وأصبَحتِ الزياراتُ غيرَ محصورةٍ على اليهود سُكان البلاد، بل أصبَح السياح من يهود دول الاتحاد السوفيتي السابق وأمريكا وأوروبا يأتون إلينا للتبرع والصلاة، وقد ترجَمْنا القصَّة مع الصُّوَرِ والأدلَّة إلى لُغاتٍ

العالم كافّة، وتبرَّعَتْ لنا شركةُ ستارت أب من هرتسيليا بنظام ريادِيٍّ مُتَطَوِّرٍ يتعرَّفُ إلى لغة المتحدث من أول كلمة، فيعطيه جولةً بوَاسطة تطبيقٍ هاتفه مع تكنولوجيا الواقع المعزز AR وبلغته الأصلية، وهذا ما نشر قصة المغارة أكثر وأكثر.

هذا وقد خرج علينا بعضُ المؤرِّخين الفلسطينيّين بقصص مختلقة ومعلومات كاذبة عن أحد قادة جيش المُخرِّبين الخاص بهم أثناء حرب الاستقلال عام 1948م وأنه احتمى في بيت المدعوة رُقَيَّة لفترة من الزمن قبل أن يخرج وتقتله مجموعة من تنظيم الإيتسل اليهوديَّة المقاتلة.

أصبَحت قصتهم الضعيفة المكتوبة فقط بلغتهم، والتي يتحدثون بها لأنفسهم هي ما نقوله للزوار الذين يسألوننا ماذا كان هنا قبل أن تعودوا لأَرْضِكُم وتجدوا مغارتكم الضالّة، حينها نوضِّحُ لهم أنَّ هؤلاء الغربَ يرغبون حتى بتزوير التاريخ اليهودي الذي كشفه لنا الله ليظهر الحق، ويستبدلون به روايات عن المُخَرِّبين والقَتَلَة، وهذا يثبت توجهاتهم العنيفةَ والإرهابيّةَ، حتى عندما نتحدَّثُ عن مغارة دينيَّة عاش فيها صِدّيقٌ وَرِعٌ، أصبَحت الرواية الضعيفة للأعداء نبيه وحوريَّة تُقَوّي روايتَنا التي يروِّجُها لنا المؤمنون من اليهود حول العالم.

استقالَتْ رونيت من جميع أعمالها، وتفرَّغَتْ لإدارة الجمعية الدينيَّة التي أنشأناها لأجل المغارة ومقتنياتها النفيسة، فمن مثلها مؤمنة وصدّيقة تحمي مَعْلَمًا دينيًّا وتاريخيًّا يُثبتُ ملكية اليهود لأورشاليم! وتفرَغْتُ أنا بالكامل، واستقلْتُ من عملي في راديو إسرائيل، وتركْتُ خلفي برامجَ اللغة العَرَبيَّة هناك، لأصبَح قائدًا صدّيقًا صهيونيًّا راعيًا لتاريخنا ودِيننا، وداعمًا مُلهمًا للاستيطان في أَرْض إسرائيل، وبعد اكتشافنا للمغارة «المقدسة» أصبَحت طريقي إلى الكنيست مُعَبَّدَةً بالزُّهور، فاخترْتُ لنفسي أكثرَ الأحزابِ تطرُّفًا كي أنتميَ له، وبعد عبقريَّةِ رونيت

في توليف تاريخ المغارة، ساعدتني أن أكتبَ لنفسي تاريخًا حزبيًّا مُشرِقًا، وبخطةٍ مُحْكَمَةٍ أصبَحتُ الرجلَ الرابعَ في الحزب.

الفصل الخامس:

عتمة «الإيجو»

نبيه 2: حتى لو تخاذَلَ البَشَرُ عن الحقيقةِ فالحجارةُ سوف تنطق!

ساءت أحوالُ الناس الاقتصادية في القدس مع بداية الانتفاضة الأولى عام 1987م، ولكن في المقابل ازدهرت حالتهم الاجتماعية والسياسية بطريقة لم يشهد التاريخُ الفلسطينيُّ لها مثيلًا منذ احتلال المدينة، تعاضَدَ النّاسُ وتكاتفوا بطريقة ملهمة لجميع حركات التحرر حول العالم، وسادت أجواء التَّشاركية القُصوى في كُلِّ شيء، في المأكل والمشرب، كما هي في الحُلم بالتحرُّر وتقرير المصير، وأصبَح ما لدينا هو أيضًا لجيراننا، وما عندهم لنا وللجميع، زالت الحواجزُ والفروقاتُ الاجتماعيةُ والاقتصاديَّةُ بين الناس، واختفى مفهومُ «العيب» والحساسية الزائدة في الأمور الماديّة، حتى أصبَحتُ أقترضُ علبةَ صمغ الأحذية المعروفة بالـ «آغو» من جيراننا دونَ أنْ أخجلَ، فجميعُنا في نفسِ المركب، ونسعى إلى البقاء على الحياة في دولة مستقلة كنا نراها قريبةً بعظيم الفخر والاعتزاز، حتى صَدَّقْنا أنَّ أولَ مفاوضاتٍ تُعقدُ سوف تُفضي إلى انسحابٍ كاملٍ من أراضي 1967م على الأقل.

كنتُ شابًّا يافعًا مُندفعًا يمتلك حذاءً (كندرة) من نوع (توب سايدر) مصنوعة من جِلْد الشّمّواه العسلي، ولكنَّها لم تكن ماركة أصلية طَبْعًا، لم يكن في ذلك الزمان أيُّ اهتمام لدى أيِّ أحَد بحقوق الملكية الصناعية أو غيرها، بل كان تزويرُ منتجاتِ الموضة يُعَدُّ «فَهْلَوَةً وشطارة» كما كان في أول عرض في السينما لأيِّ فيلم عالميٍّ محصورًا على أصحاب محالِّ نَسْخِ السّي دي «القرص المدمج» يصوِّرون شاشةَ السينما بكاميرات الفيديو، وينسخون الفيلم بتلك الجودة المتواضعة مع أصوات الجمهور في القاعة على أقراص السّي دي ويبيعونها في اليوم التالي في المحلات وعلى البسطات، كانت التوب سايدر خاصتي مشهورةً في نهاية ثمانينيّات وبداية تسعينيّات القرن الماضي، كما كانت موضةً شائعةً لأناقة الشباب في أسواق القدس القديمة، اشتريْتُها من أحَدِ حوانيت سوق الحُصُرِ

«أو الخواجات» والذي يقع نهاية سوق القطانين، ملاصقًا لطريق حارة اليهود، وفي نفس مشوار التبضُّع اخترتُ معها بنطالون جينز كاوبوي ماركة «الهندي الأحمر» من دكانَ آخَرَ لا تزيد مساحتُهُ عن متر مُرَبَّع في نفس السوق، لم يكن في المحلِّ مكان لقياس الثياب، ولكنَّ صاحبَهُ لديه خبرةٌ وقدرةٌ على توقُّع مَقاس المُشتري «ما بتْخُرّ المَيّ»، ويعطيكَ كفالةً أسبوعًا كاملًا لترجيع البنطالون إن وافقْتَ على الشِّراء بدون القياس والتجربة، أمّا في حال الإصرار على القياس، فعليكَ أخذ البنطالون، وترك بطاقة هُوية أو ساعة أو أيّ شيء له قيمة ضمانا واطمئنانا وحرْصًا، ومن ثمَّ عليكَ السَّير إلى مَحَلِّ صديق البائع في باب السلسلة عند خان السلطان، ولكن عندها إذا أعجبَكَ واشتريْتَ فلا يَحقُّ لك الترجيع! أمّا كُندرتي التوب سايدر، فقد فتَحتْ فمَها بعد أقلَّ من شهرين على شرائها، ولم يكن هناك أيُّ مجال لشراء واحدة جديدة، اسْتَعَرْتُ علبةَ الآغو من الجار، وبدأتُ رحلةَ «الجَكَر المَقْدسي» بيني وبين الحذاء، أدهنُ الآغو بين النعل ووجه الحذاء في كلِّ مساء، أضعُ الحذاء تحت قائمة السرير للضغط، في البداية كنتُ أنامُ لَيْلي الطويلَ مع ميلان من الزاوية البعيدة للسرير بسبب ارتفاع قائمته قليلًا بسبب الحذاء، أستيقظُ في الصباح لتكون التوب سايدر جاهزة للاستعمال، أكرِّرُ العمليَّةَ ثلاثَ إلى أربع مرّات أسبوعيًّا، وهكذا أمضيْتُ سَنتَيَّ الانتفاضة الأولى، فخورًا بالنِّضالَ الشعبيِّ والتعاضد الاجتماعيّ، وتلك الفلسفة الثَّوْريّة التي تجمَّدَتْ فيها جميعُ رفاهيَّات الحياة، ولم يبقَ إلا هدَفٌ واحدٌ ووحيدٌ وهو الحرية.

عشْنا نتحدّى كلَّ أشكال العُنصريَّة ومظاهر الاحتلال وممارساته منْ حولنا، يدفعُنا الإيمانُ بالعدْل والحقِّ إلى التمرُّد على الذُّلِّ والقهر، وبلغَ ذلك التمردُ ذروتَهُ حتى شملَ تمرُّدي على عَطَبِ حذائي القسريِّ!

مَرَّ على تلك الحقْبَةِ عشراتِ السنين، خُضْنا فيها انتفاضتَيْنِ وحروبًا

عديدةً على غَزَّةَ، وغيرها من المفارقات الكثيرة، حيث لم يعد هناك من يُقرضُ أخاه صمغ «الآغو» لتضميد جِراح حذائه، بل زاد الأنجاسُ، وتقَهْقَرَ أكثرُ الشُّرفاء، رُبَّما هي الطبيعة، ودورةُ الحياة الاعتياديّة فيها على مَرِّ الزَّمان، ويجب أن نَمُرَّ نحن الفلسطينيّين أيضًا في فترة انتكاسة إلى أنْ ننهضَ بجيلٍ جديدٍ يُعيد ضبطَ البوصلة.

أعترفُ، أنني وبالرغم من مسيرة الحياة وتنوُّع التجارب أتفاجأ من عتمة بعض البشر، وظلام أرواحهم، خاصة بعد الانتقال من الثورة إلى التسوية، وقد باتت منظومةُ المصالح هي المسيطرة على المشهد الوطني والمجتمعي، عشت معتدًا بنفسي، ولست مغرورًا بالرغم من فهمي العميق لمعادلة القويِّ المُحتَلِّ، ومَنْ يرزَحُ تحت نير الاحتلال من البشر، رُبَّما لأنّني فهمتُ مُبكرًا، وحاولت أن أتخطّى الفهمَ بالرَّفضِ والتمرُّدِ والأنا العالية.

ولكنَّني دومًا كنتُ أبتعد عن الأنجاس، وقد سمعتُ هذا المصطلحَ في طفولتي حين كنتُ ولدًا صغيرًا يقطع الشارع الضيِّقَ الذي يفصل بيته عن جامع الحارة، أجلس بجانب المتطوع جارِ المسجد الذي يُغطّي على الشيخ الموظف الرسمي الذي يقبضُ الراتبَ من الأوقاف مقابلَ الأذان والإمامة في الصلوات الخمس، كان يأتي فقط على صلاتَيّ المغرب والعشاء بعد إتمام أعماله النهارية في محلِّ السّمانة الذي يملكه في باب الساهرة، أمّا أيّام الجمعة فلم يكن يأتي أصلًا لادِّعائه أنه يقضي اليوم في المسجد الأقصى، فيقوم العمُّ صالح جار الجامع بحصد الحسنات عن فتح بيتٍ من بيوت الله، وإقامة الصلاة فيه، ويحصد الشيخ الرسمي الدنانير على العمل الذي لا يقوم به، كان العمُّ صالح يحدثني عن الكثير من الأشياء، ويعلِّمُني ترتيلَ القرآن بصوتي الرفيع، ورُبَّما القبيح أيضًا، وفي يومٍ مشمسٍ جلسْنا في مدخل المسجد نتعلم الترتيل من صالح، فدخلَ

علينا رجلٌ يبدو لي عاديًّا، مُرتَّبُ الهندام، كبيرُ الكرش، مربَّعُ الوجه، لحيتُهُ شقراءُ ولا تملأ وجهَهُ، ألقى التحيةَ فردَدْتُ بسرعة؛ لأنني كنت قد تعلمت ردَّ التحية بصوت عالٍ أمام الناس مُؤَخّرًا، ولكنَّ جارَ الجامع لم يرُدَّ عليه السلام، وعندما سألته لماذا لم يفعل، قال بلُغَتِهِ الفُصحى:

- إيّاك والأنجاس يا بُنَيَّ، وهذا منهم!

ثم استدرك وصَمَتَ، خجلتُ أنا من تكرار السؤال، لكنّي لم أنْسَ لحظةً تعبيرَهُ وتقاسيمَ وجهِهِ في تلك اللحظة.

سألتُ عن قصته، أشاحَ بوجهه، ولكن سرعان ما عاوَدَ النظرَ إليَّ، وَكأنَّهُ تخيَّلَ فجأةً أنَّ يومًا ما سيأتي وأروي لغيري ما أسمع منه، ثم قال:

- اسمعْ يا نبيه، شو بدَّك بهذا الرجل وقصته، المُهمُّ أنْ تنتبهَ دائمًا للأنجاس، وأن تحرص ألّا يكونوا من حولك.

فسألْتُهُ ببراءة:

- طيِّب مين هم هدول؟ فأجاب:

- هدول يَخي اللي ينظرون إليك والعين بالعين، ويحلفون بكلِّ شيء، بشرَفِهِمْ وأبنائهم وأعراضهم، مع الدمع والسَّجْع والمُخاط الذي ينهالُ من أنوفهم، ويكذبون! هم مَنْ لا يأبهون إلا بما يريدون دون حدود أو رادع أيًّا كان، ودون أن يفكّروا للحظة بخُبْثِهِم وبحقارة تصرفاتهم، هم أولئك الذين يخدعون بنجاسة أفكارهم وسموم قلوبهم أيَّ أحَدٍ في أيِّ وقت، هم من يختبئون خلف شعارات وأفواج مَن الكلام الساحر، فلا تأمن شرَّهُم، ولا تنصف نفسَكَ عندما تتركهم يمرون دون عقاب.

- هم الأنجاس يابا يا نبيه، والويل لمن يخيط الذكريات معهم؛ لأنَّهم يجترّونها متى يشاؤون، ويلبسونها ثوبَ الدَّنَس؛ ليُبَرِّروا خيانتهم وسفاهة مواقفهم.

بقيَ وصفُ الأنجاس يراودني ويرافقني مدى الحياة، فجعلتُ في ذاكرتي قائمةً سوداءَ أضيفهم إليها كُلما انطبَقت المواصفاتُ على أحَدهم أو إحداهُنَّ، وهكذا استمرَّت الحياةُ تارةً مَظلومًا بالفطرة وتارةً أخرى ظالمًا بالصُّدفة، رُبَّما هو ذاك الظلمُ العفوي الذي لا حاجةَ فيه لأنْ يتآمَرَ عليك أحَدٌ كي يحلَّ بك، وكما يبدو فإنه من يولدُ مَظلومًا بالفطرة، تنصفه الحياة في مرحلةٍ ما، وكما يقول أهْل القدس:

- الله بيعْطي كُلّ بني آدم ع قَدّ نيّتو...

ولكنَّ هذا الإنصافَ يأتي مُتَأَخِّرًا في أغلب الوقت، ويرافقه بعض الأعراض الجانبية والأمراض النفسية ومنها «الأنا» المتضخِّمة، وهي ما يسمّونَه «الإيجو». قال لي إتسفيكا نجم المستوطنين الصاعد «حارس المغارة» وجار التعاسة في الشيخ جرّاح عندما التقاني أول الطلعة الموصلة لبيت أهْل حوريَّة، وكان يضحك متهكمًا على صراع أزليٍّ بين بقَالتَين تُضاربُ إحداهُنَّ على الأخرى بأسعارِ الكحول وطعامِ القَطط:

- نبيخ (نبيه)، تجيد لهم (إحكيلهم): اخفضوا الإيجو بالعمل، تحققوا الأرباح في النتائج!

ما أقبحَ أن تستمع للحِكَمِ من فَمِ مستوطِنٍ مُحتلٍّ، ولكنه أيضًا أضاف بتهكّم:

- إنتو خليكم شوفوا خالكم على كل شي... وإخنا خلينا ناخد كل شي!

سرَحْتُ لوَهْلَةٍ بكلامه، وصفنْتُ صفنةً طويلةً، وعيناي لا تتحركان وهما تنظران إلى البقّالتين المتلاصقتين والمتناحرتين على زاوية الشارع، وبقي إتسفيكا يحدِّقُ بي، فجأة تحركتْ عيناي ولَمَعَتا، وَكأنَّها إشارةٌ لإتسفيكا ليكملَ كلامَهُ:

- ما أخي؟ نَقال لخا هأسيمون؟ (ماذا يا أخي هل نزلت لديك الصّمونة)

«كان هذا مثلاً بالعِبْرِيَّة يقولونهُ عندما تخطرُ على بال أحَد فكرةٌ، وتفتح أمامه الآفاق للفهم والمعرفة كما كانت تفتح في الماضي الصَّمّونة الخط في الهاتف العمومي لنجري الاتصال»

لم أجِبْهُ، بل احمرَّ وجهي، وتعرَّقْتُ قليلًا، فأكملَ إتسفيكا بوقاحة ودونَ تردُّد، وَكأنَّهُ يقتنصُ فرصةً نادرةً سَنَحَتْ له، فقال وهو يُحَدِّقُ بي:

- نبيخ، رُبَّما تبدأ العمل معنا، أنت أفضل بكثير من هؤلاء العرب البرابرة.
- تكشيف (اسمع): أنا بعطيك مصاري كتير، وأنتَ بس خلّيك منيخ معي ومع رونيت والأولاد، المغارة هاي كنز، وأنت وخورية بتستفيدوا، بس أنت بتخكي أنو هاي أرْض يهود وكانوا هون وأنك بتعرف هيك من زمان. ما تخاف أنت بتصير معنا وما حدا راخ يعرف.

استيقظْتُ من السَّرَحان، ومن الخَطِّ الذي انفتَحَ أمامي على وقاحة إتسفيكا المتأصلة في بدَنه، شَتَمْتُهُ وشَتَمْتُ أُمَّهُ وأختَهُ وعائلتَهُ وترابَ مَنْ سَبقوه ومن سيأتون بعده، ولكنَّ الشتائمَ في الثقافة الإسرائيلية الناشئة ليس لها ثمنٌ، ولا تدقُّ على وَتَر العِرْض والشَّرَف لديهم، وذكْرُ المناطق الحسّاسة في جَسَد أيٍّ كان كشتيمة، لا يُحرجُهُم ولا يُشعِرُهُم بالإهانة، ولا يجعلُ منهم مجانينَ يحرقون ويضربون ويقتلون كما نفعل نحن! وأنا تعلمْتُ ذلك «ففشّيت خُلقي» بالشتائم الغليظة، واعتمدْتُ على المفارقة الثقافية بيننا وبينهم، ولكنّي لم أضربْهُ كما كان يتمنّى أن أفعلَ كي يُحْضِرَ لي كلَّ شُرطة دولته؛ لتسحبَني ويبدأ بابتزازي من جديد، حتى لا يتحول الشجار في ملفات الشرطة إلى «ملف أمني» وعلى

خلفية قومية كما يدّعون دَوْمًا، ومع ذلك وللأسف والحسرة السوداء انفتَحتْ أمامَ عينيّ حقيقةٌ صارخةٌ، التفّفْتُ حولها ولفّفْتُها بثوب الكرامة وعزّة النّفس والحساسية، لقد كان كلامُهُ صحيحًا، ولا علاقة بين الأنا «الإيجو» المتضخمة وبين الكرامة وعزة النفس المتواضعة، إنَّ أثقال هذه الأنا التي نحملها على كاهلنا تكسر أكتافنا وتجعلنا أصحاب إعاقة وغرور، هذه «الأنا» المتضخمة تمنعنا من النظر حولنا وتقييم الواقع، رُبَّما تُكسبُنا جدالًا بيزنطيًّا أو بعض المزايدات على بعض هنا أو هناك، ولكنها لا تحقق لنا أيةَ نتيجة في النهاية، تجعلنا نفار من نجاح الآخرين، ولكنها لا تدفعنا لنعمل مثلهم، بل رُبَّما تدفعنا بحقد غير مفهوم إلى تحطيمهم ليجدوا مكانهُم بجانبنا. هي الأنا نفسها التي لا تسمح للقناعة أن تجد طريقها إلينا، ولا تعطي للطمأنينة مسلكًا إلى قلوبنا، «الأنا» أو الإيجو الذي تخلَّصُ منه غيرنا ونهض من الركام، ما زال يسيطرُ علينا، ولذلك بدل أنْ نجيبَ عن أيِّ سؤال لا نملك إجابته: لا أعرف! ببساطة شديدة «لا أعرف» بدون أن نُتبعها بعشرات الكلمات التي لا معنى لها سوى تدليك الأنا الخاصة بنا لترضى بحقيقة أنها لا تعرف وبعدها تسترخي ولا تتعب نفسها كي تعرف.

كيف نتخلص كلُّنا من الأنا المتضخمة؟ وكيف لا نبيع الأوهام لأنفسنا؟

بقيت أسأل نفسي هذا السؤال، وأحاول أن أجد سرَّ لعنة «الأنا المتضخمة» وهل قدرنا أن تبقى معنا منذ الولادة وحتى الممات! هل هي متلازمة القلق والألم التي تبقى حولنا مهما حاولنا النجاة؟

ماذا فعلنا خطأً كي نستحق هذا الفشل المزمن؟ لا أدري فعلًا. فقد مَرَّت الآلافُ من الأحداث خلال الكثير من الوقت، ولم تسمح لي كثافة المواقف والحَيّز الزماني الخاص بها أن أضع يدي على الجُرْم الذي ارتكبناه لنستحقَّ كل هذه الهزائم!

ماذا فعلتُ أنا «نبيه» كي أُصابَ بمرض «الأنا» المتضخمة ولا أنجو منها إلا بشقِّ الأنفس؟ أصبَحتُ أعود بالزمن عامًا قبل عام، لأبحث عن أخطائي التي لا تُغتَفَرُ، فتذكرتُ فجأةً هاتف «خالتو» نجوى، صديقة أُمّي المقربة التي أعطت الغالي والنفيس من المال والوقت والواسطات لتركيب خَطِّ هاتف من شركة بيزك الإسرائيلية التي كانت في ثمانينيّات القرن الماضي لا توصل الهواتف في القدس الشرقيَّة إلا بصعوبة كبيرة، وبسبب الإثارة والفخر بنجاحها في تقديم الطلب، كانت الخالة نجوى قد أعطت أُمّي رقم الهاتف قبل أن يُركِّبوه لَدَيْها، وَجَدْتُ في غرفة نوم أُمّي قطعةً من الورقِ الأصفرِ على «البيرو» وهي قطعة أثاث خشبيٌّ أصغرُ من خزانة وأكبرُ من كومودينا مع جواريرَ. الورقة «مُجَعْلَكَة» ومكتوبٌ عليها بخَطِّ أُمّي الكبير، وبقَلَم ألوانِ الشمع التي كانت تستخدمه لتعليم القماش قبل القصِّ والخياطة:

- رقم تلفون نجوى اللي بدها تْرَكّبُه بُكرا: 285245.

أعجبَتْني الفكرة، فنقلْتُ الرَّقَمَ إلى دفتري بسرعة، وراقبْتُ في اليوم التالي متى سيركب الهاتف الجديد، وبعد عودتي من المدرسة انتظرتُ في منطقة مُطلَّة على كلِّ أبواب بيوت الحارة، وبالفعل جاء الفنّيّون من شركة بيزك ودخلوا بيت نجوى وبعد نصف ساعة غادروا وهم يحملون عدتهم وسلالمهم، وخالتو نجوى تركض خلفهم بحجابها الكاشف غُرَّةَ شعرها، وجلبيَّة «نص كم» تدعو لهم بالتوفيق، وتقول:

- الله يحفظكم يا خالتي، الله يرزقكم يمّا.

وهم يردون عليها: «بسيدر جيفيرت» حسنًا يا سيدتي.

رَكضتُ إلى البيت، لم يكن أحَدٌ هناك، تناولت سماعة الهاتف، اتَّصَلْتُ على رقم خالتو نجوى الجديد، وقلت:

- ألو السلام عليكم « ردت نجوى»
- جيفيرت نجوى، إخنا اللي ركَّبْنا عندك تلفون «قلت لها».
- آه يخي، والله دفعت كل اللي بدكم إياه، شو بدكم كمان؟
- لا جيفيريت إخنا كان لازم نخكيلك إنّه نسينا نخط زيت ع تلفون عشان الصوت يكون واضح، سخّني زيت زيتون أصلي وخُطّي تلفون جديد فيه، وشوفي كيف بصير.
- حاضر يا خواجا الله يستر عليك ويخليك، أنا حاسة إنّه الصوت بجْعَرْ جَعرْ.. هلأ بزيّته.

تركتُ سمَّاعةَ الهاتف بلهفة، وركضْتُ إلى بيت الخالة نجوى لأشاهدَ بعيني ما سيحدث، كانت حالة الطوارئ قد أُعْلِنَتْ لديها في المنزل، أحضَرَتْ سِدْرًا نحاسيًّا كبيرًا، هو الصينية الكبيرة نفسها التي كُنّا نستعيرها منها لصنع الكعك والمعمول بالأعياد، ووضعت الهاتف الجديد في وسطه، سَخَّنَتْ زيتَ الزيتون «بالبكرج» إبريق الشاي حتى أصبَح بدرجة حرارة دافئة، بدأَتْ تسكُبُ الزيتَ على الهاتف والسلك، وتتأكّد أنَّ الزيتَ تغلغَلَ في ثُقوب السماعة حتى يلينَ صوتُ المتَّصل، وبقيَتْ تُدَلِّكُ الهاتف حتى تعطَّلَ الجهاز، ولم تَعُدْ تسمعُ أيَّ صوت فيه.

بقيتُ أراقبها من شُبّاك بيتها المُطلِّ على الشارع، وأنا لا أمسكُ نفسي من مَوجة الضحك التي تسيطر عليَّ، أمسكَتْني بآخر لحظة، وعرفت أنني الشيطان الصغير الذي فعل فعلتَهُ فيها، أخبرَتْ أُمّي والجيران بما فعلت، أنكرتُ طَبْعًا كُلَّ هذا الكلام، واتَّهمْتُها بالخَرَف، صدَّقَني الجميع ولم يصدقوها، وها هو ذنبُها أحمله في رَقبتي لليوم، وأدفعُ ثمنَهُ بعض الأحيان ببروز الأنا «الإيجو» هنا وهناك، تُوُفِّتْ نجوى من سنوات، والمقلب الذي عملتُهُ بها بقيَ يلاحقُها حتى يومها الأخير، أما عن فِعلَتي، فلم تظهرِ الحقيقةُ أبَدًا، ونجوْتُ منها، فهل هذه لعنتي؟!

رَوَيْتُ لحورِيَّة هذه القصَّة في إحدى الليالي وأنا خجلانٌ منها، بعكس ما كانت مشاعري سابقًا مع الأنا العالية التي تخلصت منها مُؤَخّرًا، كنت أحكي عن هذا المقلب لأقول كم أنا متحاذقٌ من غير رحمة، ولم أكن أنتبهُ إلى أنَّ فكرةَ استقوائنا على بعض ونحن جميعًا تحت احتلال يُصِرُّ على أن يضطهدك طيلةَ الوقت هي فكرة حقيرة مهما كانت مضحكة، وأنْ تعيش وأنت تشعرُ أنَّ هناك نظامًا يعمل ضدَّكَ، يبحث عن أيَّة فرصة ليقهرك، وتبقى تبحث عمن هم أضعف منك لتقهرهم، رُبَّما هذا أقوى أنواع العنف وجلد النفس، وفي تلك الليلة التي سردت فيها قصة نجوى بدون حس الفكاهة المعتاد لدي، وقبل أن تبدأ حورِيَّةُ بالتعليق على القصَّة، ولكن حركاتها ولغة جسدها التي بِتُّ أفهمها دلَّتْ على عدم إعجابها بكلِّ ما قلت، رَنَّ جرَسُ هاتف البيت الذي لم يعد يرنُّ من فترة طويلة بسبب انتشار الهواتف المحمولة، كان ضابط الشاباك المسؤول عن منطقة الشيخ جرّاح في الجهة الأخرى من الهاتف، وقال:

- نبيه، ننتظرك في محطة الشرطة فوق البريد مقابل باب الزاهرة (الساهرة)، بتعرفه؟

ضحكت من كلمة «بتعرفه» فمن من القدس لا يعرفه ولم يلقَ نصيبه من الإهانة فيه!

سألتني حورِيَّة:

- شو في يا حبيبي؟ لَيْكون إتسفيكا شكا عليك! إحنا بْنِخْلَصْ من عُزرايين بيجينا قبّاض الأرواح؟

كانت حورِيَّة قَلِقَةً عَلَيَّ، وكما يبدو تخشى أن أكونَ قد فعلتُ شيئًا بالسِّرِّ، لأنتقمَ بعد أن تعرَّضْتُ لحادث مُهين جدًّا لَجَم لساني وأدخلني في حالة نفسية لم أتعرَّض لمثلها أبَدًا، فقد اعتدى عليَّ بعض الفتية من أبناء المستوطنين في حَيِّنا حتى تمنَّيْتُ الموت قبل أن أتذوَّقَ مشاعر الحسرة على

نفسي وعلى شعبي، حصل ذلك قبل فترة قصيرة من مكالمة الضابط، وكان ساعدي الأيمن ما زال مكسوراً وملفوفاً بالجبس وأحمله مُعَلَّقاً برقبتي، ومن يومها لم أخرج إلى الشارع، وليس لديَّ ما أقوله لأحَدٍ! أقلقَتْني مكالمة الضابط، خاصة عندما سألني عن أملاك عائلتنا وذكر أسماء بعض الأجداد.

ارتديْتُ ثيابي بصعوبة، ولم تسمح لي عِزَّةُ النَّفْسِ أنْ أطلُبَ مساعدةَ حورِيَّةَ إلّا بأن توصلني بسيارتها إلى المخفر لأني لا أقوى على المشي لباب الساهرة، ولا أستطيع القيادة بيدٍ واحدة. أمضيت أكثر من نصف ساعة على باب المخفر، وهم يحاولون تفتيش الجبس الذي يلفُّ يدي خوفًا من أن أُخفي أداةً حادَّةً داخله، وبعد اقتناعهم أن رجل في نهاية الأربعينيّات من عمره، ومضروب من بعض المراهقين المستوطنين لن يأتي على المخفر برِجْلَيْه، ويخفي شفرةً أو مِقَصًّا بذراعه المكسورة، أدخلوني إلى الضابط الذي هاتفني، فوجدته يزهو بالأوراق التي يقلّبُها بين يديه، ومعه مُحقِّقٌ آخرُ، وهو عَرَبِيٌّ يخدم في الشُّرْطَةِ الإسرائيلية، نَظَرَ إليَّ العَرَبِيُّ وقال:

- جيتْ يا نبيه، عامل حالك شاطر، وما بوقع إلا الشاطر، ليش سارق أملاك قرايبك؟

وأطلق ضحكة وَكَأَنَّهُ يقول لي: وراك وراك وين ما تروح!

لقد ظهر لنا بدون سابقِ إنذارٍ وريثٌ في أملاك عائلتنا المجيدة، وكما يعلم الجميع، فقد هاجر «صلاح الدين» جَدّي لأبي من فلسطينَ في بدايات القرن الماضي إلى أمريكا، ولم يعلم عنه أحَدٌ الكثير، يدَّعي الشابُّ الأرعنُ الذي قدَّمَ شكوى ضدّي أنَّني أضع يدي على أملاكه، وأنَّهُ أحَدُ أحفاد جَدّي لأبي بالحرام! وأنَّ له في أملاك العائلة مِثْلَ ما لنا وأكثر! وتقدَّمَ بالشكوى حتى يساعده المحققون الإسرائيليون بتحصيل حقِّه قبلَ أن يأخذنا إلى محاكم دولتهم التي لا يؤثِّرُ الدينُ والأخلاقُ

والسُّمعةُ والأعرافُ في أحكامها، خاصةً حين يكون المشتري والمستفيد النهائي لما يمكن تحصيله بالتزوير هي مجموعات استيطانية استعمارية متنفذة.

سألتُ المحققَ العربيَّ:

- مين هادا وْمِنْ وين جاي، وليش أصلًا جاي عندكم؟ يْروح ع المحاكم إذا إلو إشي.

سَكَتَ ولم يُجِبْ، وغَيَّرَ الموضوع، نظر إليَّ بحقد، وقال:

- بِدْكُم تِعطوه حُصّتُه بِبيوتْكُم وأملاككم غصبٌ عنكم... بْتِفْهَمْ؟!

- أعلى ما بْخيلْكُم إنتو وإياه اركبوه، أَجَبْتُ وهَمَمْتُ بالخروج.

- قفَزَ أمامي ضابطُ المخابراتِ الإسرائيليِّ الذي كان ساكتًا حتى تلك اللحظة، أمسك ذراعي المكسورة، وقال:

- القصَّة ما خلْصَتْ، وَحَوّلَ نَظَرَهُ للجِبْسِ حَوْلَ ساعدي وقال: يَعْني مْنيح اللي عِمْلوه فيك الأولاد!

جلسْتُ من جديد أمامهم، وبَدَأَ المحققُ العربيُّ من جديد يروي لي القصَّة التي حَبكوها مع الحفيد المزوَّر، يروي المُدَّعي علينا في أسطورته أنَّ والدةَ جدِّه لأبيه والمدعوَّة سعديّة، وقبل مئة وأربعة أعوام بالتَّمام والكمال، وخلال فوضى الحرب العالمية الأولى التي غيّرت الحُكْمَ في فلسطينَ، وجاءت بالانتداب البريطاني، أي قبل سَفَرِ جَدّي صلاح الدين إلى أمريكا بعامّين تقريبًا، كانت والدة جدّه سيدة فائقة الجمال، بشرتها بيضاء نقية، وعيونها خضراء واسعة، ممشوقة الطول، تترنح في مشيتها كغصن البان، وكانت متزوجة من حُسني الخَبَّاز ابن بلدتها الكائنة في أطراف مدينة القدس، ويروي أنه وكما يبدو تعثرت الحسناء بجَدّي أو هو من تعثَّرَ بها، فسقط بين يديها صريعَ الحُبِّ، وسواء بالاتفاق

مع زوجها الخَبَّاز، أو رغمًا عنه تطلقت من زوجها وتزوجت بدون شهود أو عقد زواج أو حتى ورقة وإشهار من جَدّي الذي وقع في حبائلها، وَخَرّ فريسةً لجمالها الذي لا يتمالك أي رجل نفسه أمامه!

ومن الليلة الأولى «بالحلال» حسب رأي الحفيد اللاهث وراء الإرث، حملت سعديّة ملكة جمال القرن العشرين بجدِّه لأبيه، وقبل أن تلدَ مولودها كانت قد تطلَّقت من جَدّي لأبي صلاح الدين لأسباب غير معروفة أيضًا، وعادت إلى زوجها ليولد الابن ويُقيّد في سجلات الانتداب البريطاني باسم حسني الخَبَّاز.

وكما يروي الحفيد القصَّة التي لا يُشَكِّكُ هو فيها أبَدًا بالرغم من تباياتها، وأنَّها لا تَمُتُّ إلى البيئة العَرَبيَّة الإسلامية السائدة في ذلك الزمان بِصِلَة، وتبدو كأَنَّهُا خرجَتْ من رواية في عصر الثورة الفرنسية، ومسرح أحداثها إحدى عواصم أوروبا، وليس مدينة القدس المقدسة، ومع أنَّهُ لا وجود لأيِّ دليل على ما يقول سوى رغبة إسرائيل ومخابراتها ومحاكمها بزعزعة السِّلْم الأَهْليِّ بين الفلسطينيّينَ الذين بقوا في ديارهم، ومحاولة الاستيلاء على بعض العقارات وتسريبها للمستوطنين، إلا أنه كان يكدّ ويلهث لنشر قصته أينما حلّ، مستعرضًا تفاصيلَها، وَكأَنَّها مدعاة للفخر والاعتزاز، وهذا كان بحدِّ ذاتِهِ إشارةٌ لي أنَّ الناس تغيَّرت، وليس بالضرورة إلى الأفضل.

يترعرع جَدُّ الحفيد المُدَّعي في بيت الخَبَّاز، وفي كَنَف والدته التي لم تُخبِرْ أَحَدًا بالقصَّة حتى وفاة زوجها، وقبل وفاتها بأيّام تذهب إلى كاتب عدل بريطاني، وتحلف أمامه اليمين القانونية أنَّ هذا الولد هو ابن صلاح الدين وليس ابن الخَبَّاز، وتُبرزُ وثيقةَ زواجها بحسنين الخَبَّاز، وورقة تثبيت زواجها منه الصادرة بعد عقد الزواج بعدة سنوات، وتدَّعي أنَّ طلاقها من الخَبَّاز وزواجها بصلاح الدين لم يكن

فيهما أوراق، والدليل على ما تقول هو وجود ورقة تثبيت زواج، وهذا يدلُّ أنَّها تطلَّقت وعادت إلى زوجها الأول، فيكتب الكاتب أقوالها أمامه ويعطيها ورقة موقعة منه ومختومة بختمه الشخصي، لتكون بعد عشرات السنين الوثيقة الوحيدة التي يعتدُّ بها، ويبطل ما دونها أمام الاحتلال ومؤسساته.

لم تنظر أيَّةُ محكمة في هذه القضية، ولم يعرف أحَدٌ بهذه الرواية في حينه، والسبب واضح وبسيط، وهو أنَّهُ ما زال أصحابُ العلاقة ومعارفهم على قيد الحياة، ومن المستحيل أن تمرَّ على أحَد قصةٌ خياليَّةٌ لا تَمُتُّ لواقع القدس والنسيج المجتمعي العربي الفلسطيني بأيَّة صلَة، فقد قتلَ الرجلُ أختَهُ أو بنتَهُ أو زوجتَهُ في ذلك الوقت، بعدَ أن انكشَفَ إصبع يدها على غريب! فكيف بالحمل والولادة ومعاشرة الأغراب والزواج والطلاق بدون أوراق أو إشهار أو حتى شهود سرِّيّين على كل ذلك؟!

حين ضاعت فلسطينُ في حرب العام 1948م لم ترم النكبةُ بظلال سرياليَّتها على الوطن والأرْض فحسب، ولم تُشَتِّت البَشَرَ وتهدم الحَجَرَ وتخلقْ واقعًا جديدًا فقط، بل تجاوزت ذلك الحَدَّ لتخلقَ فرصةً ذهبيَّةً للأكاذيب والأوهام والتزوير، ليصبح ذلك الكَذبُ من الحقائق في عُرْف الدَّوْلَة القائمة على ما تبقّى مما يملكُه النّاسُ من حقائق، ماتَت الجدَّةُ جميلةُ الجميلات قبل النَّكبة بعامَيْن، فدَفَنَها ابنُها (جَدُّ الحفيدِ المُدَّعي الآن) في قريته، واختفى عن الأنظار، وعاد بعد ويلات الحرب والتهجير، وكانت القدس قد غدت تحت الوصاية الأردنية، ويحكم فيها من لم يكن هناك من قبل أصلًا، ولا يعلم ما حدث ويحدث، فأخذ ابن الخَبَّاز عنْزَتَهُ الحَلوبَ التي ورثَها عن أمِّه، وقدَّمَها رَشْوَةً دَسِمَةً لمختار البلدة الوحيد الذي لم يَمَسَّهُ سوءٌ خلال الحرب، وحَلَفَ يمينًا هو والمختار أمام دائرة النفوس الأردنية المستجدَّة في القدس أنَّهُ كان هنا قبل الحرب، وأنَّ اسمَ والدِهِ صلاح الدين، تبرَّأَ من الخَبَّاز، وأصبَح منذ ذلك اليوم بشهادة

ميلاد صادرة بعد ثلاثين سنة من ولادته ابنَ صلاح الدين صاحب الجاه والنسب.

تزوَّجَ ابنُ الخَبَّاز وخلَّفَ الأبناءَ، وهم خلَّفوا الأحفاد الذين يحملون اسم جدي صلاح الدين «جدّهم الأكبر» الذي لا يملكون له حتى صورة ببرواز، الغريب في الأمر أنَّ ابنَ السيدة الجميلة وربيبَ الخَبَّاز لم يحاولْ يومًا وحتى مماته أن يبحث عن عائلة أبيه الذي سجَّلَتْهُ الحربُ ومُفارقاتها في هُويَّته، فهل كان يخجلُ من القصَّة! أم أنَّ رواية أُمِّه لم تقنعْهُ، وقد غيَّرَ اسمَهُ بدون اعتراف والده به لرؤيةٍ بعيدة الأمد، تضمنُ الأملاك وتُؤَمِّنُ مستقبلَ الأحفاد.

ولكن المفارقة الحقيقية جاءت بعد مئة عام على القصَّة، حين وقف الحفيد المطالب بحصته من الميراث أمام الناسِ يطالب بحصَصِه، وكان قد احتمى بدولة إسرائيل وأجهزتها الأمنية، فسأله أحَدُهُم:

- بْتعْرِفْ يا ابني إنَّه كلامْكُم وروايتكم مع عدم وجود أيّ ورقة تُثبت بشكلٍ قاطع ما تقولونه، بْتعْمَلْ مِنْ جَدَّكْ إمّا مُنْتَحِلْ شخصيَّة كذَّاب أو ابنْ حرام؟!

رَدَّ الحفيدُ بدونِ أن يفكِّرَ وأمامَ الجميع:

- يا سيدي، ابن حرام بيوْرَثْ أحسنْ من ابن حلال ما بْيوْرَث! واللي بْياخُد أُمّي بقولُّه يا عَمّي.

لم أكُنْ أخشى على مكاسبِ الأملاك والحصص، فجميعها أصلًا لا يأتي منها مردودٌ يُذكَر، يسكنها المستأجرون المحميّون الذين لن نقاضيهم ولن نخرجهم بالاستعانة بقوانين إسرائيل، وهم وللأسف يعرفون حدودنا جيّدًا، يرمون لنا بقيمة الإيجار السنوي الذي لا يكفي لوجبة طعام عائلية، والذي تم تحديده قبل احتلال القدس الشرقيَّة عام 1967م في عقد الإيجار، فيتقاسمه المئات من أبناء العائلة، ولكن شبهات

التسريب للجمعيات الصهيونيَّة الاستيطانية هو ما يقلقني، والخوف الحقيقي أن يتمكن حفيد ابن الخَبَّاز من تزوير أيَّة ورقة من أيَّة جهة تدلُّ على أنَّ لهم حتى ولو حجرًا واحدًا في إرث العائلة، ليكون كافيًا كي نستيقظ لنجد أمثال إتسفيكا ورونيت جيرانًا لنا، كما حصل في بيت رُقَيَّة في الشيخ جرَّاح، وأصبَح بعدها مزاراً دينياً لمغارة يعلم كل أَهْل البلد حقيقتها، ولكن صوت الحقيقة كان أضعف من تزوير الدولة المستجدة ومستوطنيها للتاريخ.

خرجْتُ من غرفة التحقيق بعد أن سمحَ لي الضابطُ بذلك، وأعاد لي بطاقةَ هُويَّتي وحزامَ بنطالي وهاتفي المحمول، عدْتُ إلى حوريَّة التي بقيَتْ تنتظرني في سيارتها عند مَحَلِّ السَّمّان للمكسرات مقابل المخفر، صعدت بجانبها وطلبت أن تعيدنا إلى البيت، ومن جديد لم أعرف ما أقول لها!

ولأجيب أسئلتَها المتكررة عن سبب الاستدعاء، قلت:

- والله يا حبيبتي هدول مش راح يعتقونا، طلع إلي قريب بقول إنّو سيدو ابن حرام، وضَلّ يستنّى قَرِن لَتَلاقَتْ مصلحتُهُ مع مصلحة إسرائيل.

طَبْعًا حوريَّة لم تترك ياقتي إلا بعد أن روَيْتُ لها كُلَّ القِصَّةِ التي سمعتُها من المحقق.

الفصل السادس:

السيستم «المنظومة»

حورِيَّة 2: الحُب يصنع الأمل والحُلم يصنع المستقبل

أصبَحَ بيتُ الخالة رُقَيَّة مركزًا للسياحة الدينيَّة والصلوات التّلموديَّة اليهوديَّة، وأصبَحَت المَغارةُ الصغيرةُ التي كُنَّا في طفولتنا أنا وأخي نختبئ فيها عند لعب الغُمَّايَة موقعًا مُقَدَّسًا يَجْني منه إتسفيكا ورونيت الأموالَ الطَّائلَةَ، آه لو يعرفون كم بَكَيْنا أنا وأخي عندما جاءت الخالةُ رُقَيَّةُ لوالديَّ - رحمهما الله - في ذلك اليوم المضطرب، نظرَتْ لأبي نظرةً لن أنساها ولا أعلم لليوم معناها، وقالت:

- يَخي، الله يخلّيلي إيّاك لاقيلي صنايْعيِّة يْسَكّرولي هالمغارة اللي تحت، هدول اليهود بخافوا حتّى مِنْ شَبَح الثُّوّار، خايفة يعرْفوا إنّو في بْداري مْغارة كانوا الفدائيين يتْخَبّوا فيها ويْخَبّوا فيها السّلاح ويْجوني، الشَّرّ بَرّا وبْعيد... أنا مَرا وحيدة وْمِشّ قَدّهم.

سألَها أبي على الفور:

- وْشو بِدّك تِعْمَلي بالأغراض اللي فيها؟

أجابت:

- تْخَفشْ يخي تْخَفشْ، أنا عْرِفْتْ عيلةْ آخرْ واحدْ كان بالمغارة قبل ما يُقتلوه عصابات اليهود، بدّي أعطي أولاده كلّ اللي لاقيته، وأسَكّرْها بالطّوب وأنام مرتاحة. ما أنتَ شايفْ هَدول لا برْحموا ولا بِخَلّوا رحمة الله تنزل.

كان الحديثُ مُستَفزًّا جدًّا لأُمّي التي امتلكت شحنةً ثَوْريَّةً مقطوعةَ النَّظير، ورثَتْها من جَدَّتي حوريَّةَ الكبيرة، وربَّما أنَّ حَميَّتَها وتعَصُّبَها للقدس رافقاها حتى وفاتها في طفولَتنا، صَرَخَت بها:

- يوو يا رُقَيَّة! بدك تْسَكّري تاريخك وتاريخنا وتِمحي دم شهدائنا عشان ما يعرفوا فيهم هدول الصهاينة! عدوّات على هالزّمن هادا، ولِكْ هاي إسرائيل كلّها إذا ضَلّت السَّنة هاي ما راح اتْضَلّ اللي بعدها!

إنت فكرك إنّو جيوش العرب والفدائيين بدّهُم يْخَلّوهم قاعدين هون؟ هاي القدس مقدّسة.

طرقَتْ أُمّي يدًا بيَد، ونفضَتْ القهرَ والهزيمة عن كَفَّيْها، لم تردَّ الخالةُ رُقَيَّةُ، بل طَأْطَأَتْ رأسَها وخرَجَتْ دون أن تنبسَ ببنت شفة واحدة، وَكأنَّها تشفقُ على أُمّي بسبب أوهامها وآمالها غير الموضوعيَّة في الوضع الحالي للأمَّة العَرَبيَّة، بعد يومين نهضَ أبي باكرًا، وكعادته أخذَ بمساعدة كُلِّ طالبِ حاجةً بكُلِّ ما يستطيعُ وأكثر، وَجَدَ «الصَّنايْعيَّة» وأشرف على شراء «الكَرَسْتَة» من طوبٍ وإسمنت، وأغلقوا بابَ المغارة المفتوح على مَطْبَخ رُقَيَّة!

جُنّ جُنونُ أُمّي يومها، وقامتِ الدنيا ولم تقعدْ على قَوْلِ أَهْلِ القُدس، سمعتُها تقول لأبي:

- يا ويلَكْ من الله يا رجّال، «عند السُّخْرَة زَيِّ المُهَرَة، وعند شْغيلي بنْهَدّ حيلي».

لم أفهمْ هذا المثلَ في ذلك الجيل، ولكنْ بعد وفاة أُمّي، وعَيْشي مع والدي لسنوات طويلة وحْدَنا، فهِمْتُ أنَّ طبْعَهُ كان يميلُ لخدمة الناس بالمَجَّان، حتى لو كان ذلك على حساب شُغْلِه ومصلحته التي يعيشُ منها.

قرَّرْتُ أنْ أتحقَّقَ ممّا سمعتُ من أبي رحمه الله حول قصة المغارة، فبدأتُ أكتبُ تحقيقًا صحفيًّا بعد أن شاهدنا إتسفيكا ورونيت يختلقان القصص الغريبة عن حاخامات ويهود عاشوا بها، وآثار وَجَداها فيها، ولم أشاهدْ أيّام طفولتي أيَّ شيء في مغارة الغُمّاية سوى مقعد أَمْلَسَ في الصَّخْرِ نتشاجرُ أنا وأخي على مَنْ يَجْلِسُ عليه أوَّلًا، ولم يكنْ فيها لا شمعَدانات ولا شيء مما يصفون الآن.

بقي أبي لأيّام عديدة بعد إغلاق المغارة يحاول إرْضاءَ أُمّي التي من الواضح أنّها أخذَتْ موْقفًا منه بعد أنْ ساعدَ رُقَيَّةَ على إغلاق المغارة، وهذا كما كان يقول لها أمامَنا:

- أمّكم غارت عليّ من رُقَيَّة، يا حَسْرتي ع حالي، كَبّري راسك يا مَرا.

وينظرُ إليَّ وأنا طفلةٌ لا أفهمُ ما يدورُ حوْلي أصلًا، ويضحك، ثم يتابع:

- وَلكْ يا حوريَّة إحْكي مع إمّك، بتْفَكّرْني أَخَدت المستورة ع شَمّةْ هَوا، واللّه رُحْنا نْدَوّرْ عَ أصْحاب الأمانة، ويا ريتْ لاقيناهم!

طَبْعًا، كان كُلُّ ذلكَ بالنّسبة لي كما الطّلاسم في حينه، ولم أعرفْ أيَّ شيء عن المشوار مع رُقَيَّةَ أو عن الأمانة التي يتحدث والدي عنها، ولم أكُنْ أهتمُّ أصلًا بهذه التفاصيل، ولكنْ بعد كُلِّ هذه السنوات، وما حصل الآن، وبسبب التحقيق الصّحفي غُدْتُ لأجمعَ المعلومات من كِبار السِّنِّ في الحَيِّ، وبدأْتُ أستفْسرُ عمّا علق في ذاكرتي من أحاديثَ سمعتُها في تلك الفترة، فأصبَحَ لِكُلِّ شيء معنى الآن.

اتّضَحَ أنَّ القضيَّةَ الكُبْرى التي قادَتْ رُقَيَّةَ إلى إغلاق المغارة، وجَعَلَتْ أُمّي تغضبُ من أبي وتخاصمُهُ بسبب الغيرة أو الوطنيَّة المُفرطة هي البُندقيَّةُ التي وجَدَتْها رُقَيَّةُ في المغارة، ومحاولاتها الفاشلة لإيجاد صاحبها أو من يرثُهُ، فمنْ جهة لا تريدُ التخلُّصَ منها خوفًا من أن يأتيَ أيُّ أَحَد في يوم من الأيّام ويسأل عنها، ومن الجهة الأخرى لا تستطيع إبقاءَها خوفًا من الاحتلال وبطْشه، أَخْبَرَني أَحَدُ الجيران، رجُلٌ طاعنٌ في السِّنِّ أنَّ الخالةَ رُقَيَّةَ عَلِمَتْ عن عائلة من الخليل أنَّ أَحَدَ أبنائها كان عُضْوًا في جيش الجهاد المُقدّس، ويقالُ إنَّهُ اختبأ لفترة في القدس الشَّرْقيَّة بعد سُقوط القُدْس الغربيَّة بيَدِ العصابات الصّهيونيَّة، وأنَّهُ اختفى بعدها ولم

يُعرف له أَثَرٌ، وأنَّ اسمَهُ عبد الخالق، وهو نفس الاسم الذي كان محفورًا على البارودة، فتوجَّهَتْ رُقَيَّةُ مَرَّةً أخرى لوالدي بعد أن أحزَنَتْها أُمّي بتعليقها على طَلَبِ إغلاقِ المَغارة بيوم، وطلَبَتْ أنْ يأخذَها بسيارتِه ويجدَ لها العائلة لتزورَها في الخليل، وتسأل عن ابنهم، وإنْ كانت البارودة لعبد الخالق نفسه، تُسلّمُهُم إياها، وبذلك توفي الأمانة.

لم يجرُؤْ أبي على إبلاغِ أُمّي عن نيَّته مرافقة الخالة رُقَيَّةَ إلى الخليل خوفًا من أن يفتح على نفسه باب جهنَّمَ، فلَنْ تكتفيَ هذه المَرَّةَ بالتَّعليق، واسترجاع الأمثالِ الفلسطينية، بل يمكن أن تذهب بأفكارها بعيدًا، وتَدْخُلَ أمورُ الغيرةِ والخيانة وما شابَهَ بين الرِّجالِ والنِّساء، اتَّفَقَ مع رُقَيَّةَ أن يُقابلَها فَجْرَ اليوم التالي، وقال لها:

- يختي يا رُقَيَّة، بدْناش أمّ الأولاد تتْفَلْسَفْ علينا، وما تفهم اللي بْنعمَلُهْ لا سمحَ الله، وهي خِلْقة الله مش عاجبها تسكير المغارة، وبدْها تْحَرِّرْ فلسطين بكلمتين، بعد صلاة الصبح بلاقيك على «اللَوَدة» (أي ناصية الشارع الملتفَّة باللهجة المَقْدسيَّة) وبْنتْسَهَّلْ!

كانت الخالةُ رُقَيَّةُ وعلى قول جَدَّتي حوريَّةَ الكبيرة رحمها الله «تصطاد بالمَيّ العكرة»، فوافقت مباشرة على كلام أبي ووجدتها فرصةً للنَّميمة المستقبليّة، وفي صباح اليوم التالي أَخَذَ أبي رُقَيَّةَ وهي تلفُّ البُنْدقيَّةَ ببطانيّة وتحتضنها وكأنَّها تحمل طفلًا رضيعًا حتى لا تَشُكَّ بها دوريةُ شرطة مارَّةٌ بالحَيّ، سارَ بها بسيارته حتى وصلوا الخليل، وبدأوا البحث عن عائلة عبد الخالق في الحَيِّ الذي وصَفَ مكانهُ أَهْلُ الخير للخالة رُقَيَّة، وبعد سؤال العشرات من الناس وصلوا إلى بيت المناضل المفقود، وقد كان أَهْلُهُ قد احتَسَبوه شهيدًا، بعد أنْ بَحَثوا عنه ثلاثةً وعشرينَ عامًا، بعدها توقفوا عن البحث، رحَّبَت العائلةُ بالزّوار المقدسيين، وقدمت رُقَيَّةُ البُنْدقيَّةَ الألمانيَّةَ المحفور عليها اسمُها «كرباينر

98ك» وبجانبه اسم عبد الخالق، كانت ملفوفةً بعناية شديدة، فسلَّمَتْها للحاجة أُمّ عبد الخالق، أخذتْها واحتضنَتْها وذرفَت الدَّمعَ عليها وبقيَتْ لأكثرَ من نصف ساعة تتلمَّسُ الاسم المحفور عليها، وأصروا عليهم ألا يغادروا قبل تناول طعامِ الغذاء كما هي العادات في إكرام الضيف، ولكن في النهاية لم يحصل ما كانت تتمناه رُقَيَّة!

لم تقبل العائلة أخذ البندقية، وقالت الأمّ:

- شو راح يصير إذا ما كان مستشهد! وفي يوم من الأيّام بتروح إسرائيل وبدو يرْجع! أنا بعرف ابني، راح ييجي عندك يدوِّرْ على بارودْته قبل ما ييجي يشوفني، إذا كُنت طيّبة «أي على قيد الحياة» أصلًا! خليها عندك وين ما تركها، وبالآخر كل حدا برجَع للي إلو يا خالتي.

وهكذا رجعت رُقَيَّةُ مع أبي إلى القدس ومعهم بارودة عبد الخالق الألمانيَّة، وقرَّرَتْ رُقَيَّةُ أن تُرجعَها إلى مكانها في المغارة، كما وجدتها في اليوم الأول، وتغلقها بمساعدة العمال الذين أحضرهم أبي في اليوم التالي، وهم كما كان يقول ويتفاخر:

- ولاد بلد ومْنَقّيهُم تِنْقايَة.

لم يتوقَّعْ أيٌّ واحدٍ منهم أنَّ هذه المغارة سوف تصبحُ يومًا مَزاراً لمستوطنين يفعلون كلَّ ما يمكن لتزوير التاريخ، كانت رُقَيَّةُ تخشى السُّلُطات خوفًا من تبعات الانتقام من آثارِ ثوارٍ مَرُّوا من هناك، ولم تكن تتخيل أنَّ إغلاقَ المغارة بدافع الخوف سوف يجعل من فتحها في يوم من الأيّام حَدَثًا هامًّا، ويخاط حولها تاريخٌ مزيفٌ لشق في الصَّخْرِ لم يكن به شيء سوى ذكرى مَنْ دافعوا عن القدسِ وحريَّتَها، وأصبَحَ بعدها مكانا مُميَّزًا لأطفالٍ يتوقون للحكايات، ومَخْبَأً لِلُعْبَةِ الغُمّاية.

استوحَشَ إتسفيكا ورونيت وغاليا في عُنْصُريَّتهما وحقدهما، فلم يعد البيت الذي استوطنا فيه مسكنًا مجّانيًّا فقط، بل أيضًا صار مصدرًا للدَّخل والشُّهرة، ومَدخلاً لقيادة قطعان المستوطنين الذين يسمون أنفسهم «متدينين وطنيين» والحركات المنظمة التي تعتدي على العرب مثل حركة لاهافاه والتي معناها «اللهيب» وقد أقيمت في البداية بهدف عنصري واحد ووحيد وهو منع النساء اليهوديات من الزواج بالعرب، أو من الـ «غوي» كافر السبت، كما وَصَفَهُ نبيه، أما الآن فقد تحوَّلَتْ لهافا إلى منظمة إرهابية تقتحم وتعتدي وتقتل الشبان العرب، سواء أرادوا الزواج باليهوديات أم لا، وأصبَحَ من الممكن أن يرتكبوا أفظع الجرائم ليحافظوا على مكانتهم بين المتطرفين الذين يزدادون تطرُّفًا، وقد باتت حركة لاهافا تتقدم وتتطور بتسارع غير طبيعيٍّ.

كُنّا في البداية نُشاهدُ من شُبّاك غُرْفَة نوْمنا المُطلِّ على الساحة التي فتحوا منها بابًا خارجيًّا ودرجًا ينزل إلى المغارة العشرات من اليهود العاديين يأتون للصلاة والزيارة، ولكن سرعان ما توافد المسؤولون الرسميون، وقيادات المستوطنين، وأصبَحنا نرى الأمن والحراسات للشخصيات الهامّة تُطَوِّقُ المنطقةَ، وتمنعنا من الخروج من منزلنا لتأمين الزيارات.

حاولتُ وزوجي نبيه أن نفعل شيئًا بأنفسنا لكنَّنا واجهنا شراسة من أولادهم اليافعين كادت أن تودي بحياة نبيه! وقد عاد مساء أحَد الأيّام، فرأى عشرات الأولاد من المستوطنين الجدد لا يزيد عُمُرُ أكبرهم عن خمسةَ عشرَ عامًا يقفون أمام بيتنا ويسدّون المدخل بحجة أنهم سَدَنَةُ المغارة التوراتيَّة، وأنَّ اليوم هو «لاغ بعومر»، وهو يوم ذكرى وفاة الحاخام شمعون بار يوحاي، حيث أصبَحَ لهذا اليوم تقليدًا لدى اليهود، يضرمون فيه النار، ويلعبون لعبةَ القوس والنُّشّاب، كما يُزَوِّرونَ قَبْرَ الحاخام في منطقة ميرون في الجليل الأعلى، وهو حَسَبَ الرواية اليهوديَّة أحَدُ

الحاخامات الذين طارَدَهُم وقَتَلَهُم الرومان في القرن الثاني للميلاد، وهو من القلائل الذين يُعرَفُ مكان دفنهم، وأصبَح ليوم وفاتهم تقليدٌ خاصٌّ، وطقوسٌ تُقامُ في كلِّ عام على مر العصور إحياءً للذكرى.

تجمَّعَ الصِّبْيَةُ أمامَ البيت، وجَمَعوا الحَطَبَ، وأشْعَلوا النَّارَ، وبدأوا بالرَّقْص على شكْلِ حَلقات، واللعب بالقوس والنشّاب كما يَنُصُّ التَّقليدُ الخاصُّ بيوم «لاغ بعومر».

لم يتمالك نبيه أعصابَهُ التي تدرَّبَنا معًا على إهمادها فوْرَ اشتعالها، حرصًا على بقائنا في الشيخ جرّاح، وعلى حياتنا أيضًا، ولكن يبدو أنَّ هذه المَرَّة لم يكن الأمرُ سهلًا عليه، فدفع أحَدُ الصِّبية من أمامه ليمُرَّ بعد موجات من الصُّراخ والشَّتائم التي لحقتْ به، تجمَّعَ حولَهُ العشراتُ من الصِّبيةِ وبدأوا يهتفون « ماڤت لعارڤيم» الموت للعرب، وأخذوا يضربونَهُ ويركلون جَسَدَهُ في كُلِّ مكان، حاول الدفاع عن نفسه، وهو رَجُلٌ قويُّ البنية، ولا يهاب من أحَد، ولكنَّ أولئك يحتمون بالكثرة ويتكالبون على ضحيَّتهم، ولم يفرغوا منه إلا بعد أن انتبه أَهْلُ الحَيِّ للصراخ وخرج الشبان والرجال والنساء من بيوتهم، فهرب الأولادُ وبقي نبيه مرميًّا على الأرْض قُرْبَ النّار المشتعلة، مُتَقَوْقِعًا على جسده مثل الهلال، والدماءُ تسيلُ من كُلِّ حَدَب وصَوْب، وذراعُهُ اليُمنى مُحَطَّمَةٌ، ولا يَقْوى على تحريكها، وبالرغم من أنَّ حُرَّاسَ مغارة رُقَيَّةَ كانوا هناك، إلا أنهم كانوا يتفرجون ولم يتدخلوا لإنقاذ نبيه أبَدًا.

لا أدري ماذا كان يدور برأسه لمدة طويلة من الوقت بعد تلك الحادثة، بقي صامتًا أغلب الوقت، يشرد بذهنه بين الفينة والأخرى، شاحبًا حزينًا، وقد اختفى من عينيه بريقُ الحياة، حتى في منظره الخارجيّ، ورغمَ كلِّ ذلك، فإنَّهُ لم يهملْ نفسَهُ أبَدًا، بقي يستيقظُ باكرًا، وتَعَلَّمَ أنْ يُهَذِّبَ لحيَتَهُ بيَدِهِ اليُسْرى، وقد أصبَحَ للشَّيْبِ مكانٌ وفيرٌ فيها، يأخذ

حَمّامَهُ السّاخن، ويجلسُ لاحتساء قهوته الصَّباحيَّة معي، أنظر إليه وسوف أرمق بإعجاب بشرته القمحية وعينيه البُنِّيَّتَيْن الواسعتين بالرغم من الرضوض الزرقاء حولهن من أثر الاعتداء عليه، سوف أتغزل بلمعة عينيه، ولكن هذه المَرَّة بيني وبين نفسي؛ لأنني لن أكذب عليه، وأقول إنني أراها وهي مختفية عن وجهه، ولكن يكفيني أن أتغزل بالمتخيّل الذي أتمنّاه. ومع عشقي له صرتُ أراهُ أقصَرَ قامةً وهو أمامي، وألحظ انحناء ظهره وأشتمُّ رائحةَ القهرِ في كِلَيْنا.

كان يقول:

- لم يبقَ للقدس إلّا من صَمَدَ فيها!

كانت هذه المقولةُ تُشعلُ فتيلي فأثور عليه وأُذَكِّرُهُ بالثَّوْرَة والقادة العظام، والرَّصاصةِ الأولى وعَهْدِ الشُّهداء، وأُذَكِّرُهُ من هو ومن نحن، وتاريخنا وتضحيات عائلاتنا وثوراتنا، وأتفلسف عليه ككاتبة مقالات أصبَحَتْ مُتَمَرِّسَةً الآن، وأعمَلُ في رام الله العاصمة المؤقَّتَة للدَّولة التي لم تَقُمْ، ولي مكانةٌ وكلمةٌ، ولا أودُّ أبَدًا أنْ أسْمَعَ عن نجاح الاحتلال بسلْخ القدس عن الضفة الغربيَّة، وعن باقي الأرْض الفلسطينيَّة، وعن مؤسسات السلطة التي ستتحوَّلُ إلى دولةٍ في يومٍ ما... فأقنعْتُهُ!

أو بالأحرى قامَ هو بمسايَرَتي كيلا أغضبَ عليه أكثر، ليس لشيء، بل لأنَّهُ يُحبُّني جدًّا، فأنا فتاةُ الجورجيت الأسود كما أحَبَّ أن يقولَ حينَ يغازلني، أقنعْتُهُ أنَّ هناك مؤسسات وقيادات في رام الله سوف ترتَعِدُ فرائصُها لسماع ما يحصلُ لنا، وبلا شَكٍّ أنَّنا لسنا كغيرنا، وبعلاقاتنا وعطائنا سوف تقوم الدنيا ولن تقعدَ حين نطرحُ قضيَّتَنا والذُّلَّ الذي يحاول إتسفيكا ورونيت وصبيَّتُهُمْ وعُصْبَتُهُمْ من المستوطنين ترويضنا عليه.

قضَيْتُ عِدَّةَ أيّام أُحاولُ تحديدَ موعدٍ مع أحَد المسؤولين رفيعي المستوى، وهو ذلك القائدُ الذي اختَصَرَ كُلَّ المؤسسات بشَخْصه، فهو الوحيدُ والأوْحَدُ بين جميع المخلوقات، وفهِمْتُ بعد محادثات هاتفيَّة مع من هم أقلُّ منه رُتْبَةً أنَّهُ وكما نقول: «بَسّ هو بمون» وكانت مساعدتنا في قضية الصّمود هي بالمونة! كان نبيه متحفظًا دَوْمًا وينصحني ألّا أفعل، وألّا أسأل، فالسُّؤالُ لغير الله مَذَلَّةٌ، وأنَّ مَنْ يُريدُ أن يفعلَ شيئًا سيفعلُ دون أن نطلبَ أو نتودَّدَ! فنحن لسنا رعايا تعرضوا لكارثة طبيعيَّة، ونحتاجُ دعْمَ الدولة، نحن القضيةُ نفسُها التي من أجلها قامتْ السُّلطة، وأخذ يخبرني بما رآه وعاصَرَهُ في طفولته وشبابه منذ كان يعمل «كافرًا بالسَّبت» أي «غوي شبات» لدى اليهود المتديِّنين إلى أن عاصَرَ دخول المنظمة إلى الأرْض المحتلة بعد اتِّفاق أوسلو الذي تنصَّلَ منه الاحتلال على أرْض الواقع منذُ زَمَن بعيد، وبقينا نحن نتمسَّكُ به، وكان يُكَرِّرُ ما حَفِظَهُ مَن بنود اتِّفاق أوسلو التي تخدم إسرائيل، لقد بقينا نُنَفِّذُ التزاماتنا بأوسلو لنحصلَ على أموال ضرائبنا من الاحتلال، لنعيش وندفع رواتب ونركب سيارات فارهة، وفي كل مَرَّة كان نبيه يسمعني أتَّصلُ بمرافقي المسؤول ومدير مكتبه كان يُعَلِّقُ بعدَ نهاية مكالمتي معهم:

- فشّ أمَل يا حوريَّة... بنْفَعشْ تْعيشي بالأوهام، فشّ حَدا بنْصَرِكْ عن جَدّ ولا بوْقَفْ مَعكْ إذا بطَبّ بْجيبْتُه وامتيازاته من القوَّة المُسيطرة على الحواجز والتجارة والمال وكلّ شي! إسرائيل نجحت بإنْها تمْسك الحَنَفيَّة وتْنَقِّطْ عليهم بمزاجها وحسب مصالحها، مِشْ بَس مصَاري وترغيب! كمان عَزْل من مناصب وتخويف.

ردةُ فعلي الدائمة كانت:

- أنت شو بعَرّفك! صار لك سنين لا وْصلتْ رام الله ولا بْتعْرِف المسؤولين الجداد ولا بْتْقْعُدْ معهم، هاي كُلّها كانت مظاهر فوضى واليوم عنا دولة ونظام!

وأنهالُ عليه بأمثلة وقصص كَتَبْتُ عنها وغطَّيْتُها إعلاميًّا، وأنا أعلمُ أنَّ ما أقولُهُ لا أعرفُ حقيقَتَهُ، أو أعرفها ولا أريد الاعتراف بها، ولكن علينا أنْ نُبقيَ الأملَ، فيردُّ عَلَيَّ بابتسامته المُبَطَّنَة بالجَدّية:

- اللي مصروفُه من إمُّه شو بهمُّه، مش راح يعْمَلوا إشي.

لم أقبلْ كلامَهُ ولا سلبيَّتَهُ هذه، واستمرَرْتُ بمحاولاتي حتى حدَّدْتُ موعدًا مع المسؤول الذي يتغنَّى بالقدس في كُلِّ خطاب ومناسبة، رَفَضَ نبيه في البداية القدومَ معي، ولكنَّني أقنعْتُهُ أنَّ هذا هو الصَّحّ، وعلَيْنا أنْ نضَعَ الجميعَ أمام مسؤوليّاتهم، وبعد أنْ وافَقَ على مُرافَقَتي، وفي لحظة شعرْتُ فيها أنَّهُ جاهز لتعليماتي. قلتُ له:

- بدناش تْمسْخرْ «أي تَهُكُّم»، وبدناش فلسفة، إذا عندك كلمة مْنيحة إحكيها، إذا لأْ خلّيك ساكت! تفْضَحْنيش قُدّام الناس.

وَصَلْنا إلى رام الله وَدَخَلْنا المبنى الحكومي، حَرَسٌ وأَمْنٌ وسياراتُ جيب سوداءُ، وشبابٌ أشاوسُ يرتدون الزِّيَّ العسكريَّ، ويقفون بسلاحهم شامخينَ حَوْلَ أسوارِ المبنى وساحاته، وعناصرُ أَمْنٍ واستخبارات ببدلات غامقة اللونِ وربطات عُنُق وسماعات صغيرة لاسلكية في آذانهم، ونظارات شمسية سوداءَ لمن يتجوَّلُ في الخارج، وفي قاعة استقبال كبارِ الزُّوّار استقبَلَنا شابٌّ وصبيَّةٌ بقمَّة الأناقة والأدَب، وهم يتبعون البروتوكول الرَّسميَّ الذي من الواضح أنهم تدرَّبوا عليه ومارسوه كثيرًا، وبإجراءات مدروسة ومتتالية تأكَّدوا من موعدنا وحرصوا على تفتيشنا بدون أيَّة إهانة أو فظاظة، طلبوا منّا تسليمَ هواتفنا الذكيَّة المحمولة قبل الدخول إلى قاعة الاجتماعات مع المسؤول، كانت الرُّبْعُ ساعة الأولى التي تخلَّلَتْها إجراءاتُ الاستقبال صادمةً لزَوْجي نبيه، فهو لم يتوقع هذا الأدب المفرط الذي يُجبرُ الضيفَ بنعومة مذهلة على التعاون مع تنفيذ الإجراءات بدون أن ينتبهَ لذلك، حتى إنْ كان قادمًا وهو ناقمٌ أو مُعارض!

لا يستطيع حتى التفكير بالتفوُّه بكلمة واحدة لهؤلاء الشباب اليافعين الجميلين، وبينما كانت فتاة بروتوكول الضيافة تأخذُ هاتفَ نبيه من يده لتودعَهُ في صندوق الأمانات، التفتَ إليَّ وهَمَسَ:

- ولكْ حوريَّة... أنت وين جايبتيني؟ والله مستحي من حالي، لو بعرفْ لَشَريتْ بدلة وكرافتَّه!

ضحكْتُ، وضَحكَ هو بصوت عالٍ، سمعَتْنا الفتاةُ الجميلةُ، فابتسمَتْ بلُطْف شديد، ووضَعَتْ مفتاحَ صندوقِ الأماناتِ بيَدِ نبيه، وقالت لنا:

- إنْ شاء الله كُلّ أيّامكم ضحك وسرور!

نظرنا إلى بعضنا البعض، ابتسمْنا بحياء، وخجِلْنا من أنفسنا.

قابلنا ذلك المسؤول، استمع وتعاطف وفهِمَ وسأَلَ العديد من الأسئلة، واستدعى رؤساءَ دوائرَ مُهمَّة للاجتماع، واتضحَ أنَّنا لسنا أوَّلَ من يأتيه في موضوع حيِّ الشيخ جرَّاح، وأنه سَبَقَ وحضرَ الكثيرون حتى ممن لم يسكنوا الحَيَّ أو مَن ليس لهم أيَّةُ علاقة فيه.

كنتُ أنا الدبلوماسية التي توضح القضيةَ للمسؤولين، وتؤكد أنَّ مرجعيَّتَنا هي دولة فلسطين التي لم تقم بعد، أما نبيه فقد كان الناقد اللاذع والواقعي الذي يقدم الطلبات التي أخذت تتراجع في سقفها بعد لقاء كل مسؤول، حتى تدهورت إلى حَدِّ الاكتفاء بطلب حضور المسؤولين الفلسطينيّين ممَّنْ يحملون تصاريحَ دخولِ القدس عبر التنسيق الأمني مع إسرائيل لزيارة الحَيِّ، والتأكيد على فلسطينيَّته، وأصبَحَ طموحُنا أن يرى إتسفيكا ورونيت أنَّهُ كما يحضر مسؤوليهم مع أمَن وحرس، يأتي مسؤولونا كذلك ببدلاتهم وسياراتهم، ولكن حتى هذا الطلب لم يكن ممكنًا، كما يبدو.

أنهكونا بالاجتماعات والاستدعاءات بآخر لحظة حسب جدول أعمال المسؤولين الطارئ، احترَفْنا صياغةَ الرسائل الرسمية التي تشرح

الوضع، أدخلونا إلى متاهة وبيروقراطية وبروتوكولات استعراضية، وكاننا دولة عظمى منزوعة السيادة، وبعد لقاء المسؤول الثاني الذي أفهَمَنا خطأنا بالاعتقاد بأنَّ كلَّ هذه الاجتماعات سوف تؤدي إلى نتائج، وأنَّ اتباع الإجراءات والتعليمات للوصول إلى النتيجة أصبَحَ في دولتنا العتيدة أهمَّ من النتيجة نفسها!

أصبَحْتُ وزوجي نبيه الذي تأمَّلَ خيرًا بالكلام الجميل نقابلُ في كلِّ لقاء نوعين من المسؤولين؛ إمّا أن يكونوا من المناضلين السابقين الطاعنين بالسن الذين يطمروننا بنوستالجيا الثورة، ويبدؤون بسَرْدِ ذكرياتهم عن القدس في سبعينيات القرن الماضي، والانتفاضة الأولى والثانية، والتاريخ الثَّوْريّ الجميل، فيضيع وقت اللقاء بالحديث العام والمشاعر الجياشة، وينتهي بأنَّ مدير المكتب سوف يتابع الموضوع حسب الإجراءات والقنوات الرسمية، أو فئة جديدة شابّة من المسؤولين تم اختيارهم بعناية شديدة كيلا يفعلوا أيَّ شيء يُغضب أيَّ أحَد، يحترفون الشعارات وإبر التخدير المنطقية التي لم نستطع معارضتها بالرغم من أنَّنا نعلمُ أنَّ هذه الإجراءات سطحية وباردة، وليس لها أيُّ أثَر على قضيتنا، ولن توصِلَ لأيَّة نتيجة، وليس على رأس لسانهم إلا جملة واحِدة:

- اكتُبْ لي كتابًا (أي رسالة رسمية) ووجِّهْلي إياه.

وفي حالات نادرة جدًّا وجدنا هنا أو هناك مسؤولاً مختلفًا قلبه يحترق لنصرتنا، وهذا من النَّوع الذي قد تمَّ تعيينه بالخطأ، وسرعان ما تتمُّ محاربته، أو فجأة نجدُهُ تحت سَوْطِ الاحتلال، ولا يجد من ينصره أو يدافع عنه.

بعد أحَد الاجتماعات التي طالت كثيرًا لدى أحَد المسؤولين الذي اتَّخَذَ منطقة مصنفة (ج) مقراً له، وهذا التصنيف يعني أنَّ السُّكان ومشاكلهم الحياتيَّة والتعليمية والصِّحِّيَّةَ والاقتصادية تتبع إلى السلطة

الفلسطينية، أما المسئوليةُ الأمنيةُ والإدارية التي تتحكم بالجغرافيا، فهي لدى الإسرائيليين.

جلسنا أنا ونبيه نستمع إلى الخطابات من ذلك الشاب الجميل، وكُنّا قد أمضينا أكثرَ من ثلاثة أشهر (عَ قول أَهْلِ القدس: چيتي چاللي؛ أي رايحين راجعين، وهي كلمة عامية مأخوذة من اللغة التركية) على مقرات المسؤولين والجهات الرسمية لنستكمل الأوراق والوثائق، ونقابل ذوي الاختصاص بالترتيب وحسب البروتوكول الرسمي، في نهاية الاجتماع نادى المسؤول مدير مكتبه وقال لنا أمامه:

- ابعتولي «كتاب» وْبَوْعِدْكُم أمشي فيه حسب النظام، يمكن نقدر حسب صلاحياتي نعطيكم عشرة آلاف شيقل دعم بتحطّو خيمة بلاستيك وكراسي في الحاكورة قُدّام بيتكم، وهيك بِنْساعد المتضامنين من العرب أو الأجانب لَيحْموا حالهم من الشمس وبرتاحوا فيها.

انفجَرَ نبيه ضاحكًا بهيستيريا مستفزة للجميع، لم أستطع السيطرة عليه هذه المَرَّة! احمرّ وجهي خجلًا، وتمنيت أن «تنشقَّ الأَرْضُ وتبلعني» كما كانت جدتي تقول! ولكنَّ نبيهًا لم يصمت ولم يهدأ، وبعد انتهاء موجة الضحك اعتذر بأدب شديد، ولكنَّهُ نظر في عيني المسؤول المستاء جِدًّا وقال:

- مَعَلِشّ معاليك، صرنا جايين وجايين، وقيم وحط وحط وقيم، وعلى الأغلب مش راجعينلك، بس خليني يا خيّ قبل ما أروح أحكيلك قصة الجاج اللي تذكرتها وأنت بتحكي وْضَحَّكْتْني، وْبَعْتَذِرْ... من كُثْر ما كانت زابطة عليك ما مسكت حالي!

تفاجأ المسؤول وكان يودُّ طردَنا، ولكن مع قوة شخصية نبيه، وفرضه لِنَفْسِهِ بأسلوبه الحادّ ولطفه، أجابه بصوتٍ خافت:

- تفضل أخ نبيه، خود راحتك ولا يهمك.

جلس نبيه مرتاحًا على الأريكة الجلدية الفاخرة، وَمَدَّ نفسَهُ إلى الأمام في مكتب المسؤول، وضعَ رجلًا على رِجْلٍ، وَكأَنَّهُ فَهِمَ أنَّه ليسَ هناك ما يخسره، وبدأ الكلام:

- شوف يا سيدي، هاجر رِجّال ومَرْتو لبلد بعيدة محترمة، وما كانوا بعرفوا البلد ولا كيف ماشية، وبعد كم يوم أجى ع بال المَرا تطبخ ملوخية، فاتصلت بجوزها وقالتلو: جيب جاجة معك وأنت مروّح للملوخية سألها: من وين؟ قالتلوا دبِّرْ حالك.

- طلع المسكين من شغله محتار شو يعمل بْحاله، وهو ماشي بالشارع شاف من بعيد مبنى عشر طبقات، مضوي ومرتب وعليه يافطة طويلة عريضة مكتوب عليها:

«المركز الوطني للدجاج»، طَبْعًا الرجل لقى هدفه وانبسط على المبنى والنظافة والترتيب، وقال لحاله «ضاعت ولقيناها.. يا هيك البلاد يا بلاش» دخل على اللوبي فاستقبله شاب وصبية لابسين رسمي مثل اللي عندكم هون. سألوه عن حاجته فحكالهم:

- بدي جاجة للملوخية! ردّوا عليه إنّو أجى على المحل الصح، وراح ياخُدْ أحسن جاجة بالبلد، بس عليه تعبئة استمارة معلومات عن حاله، والهدف اللي بدو الجاجة عشانه، أعطوه قلم واستمارة عبّاها، وهو مستغرب بس بالآخر الحاجة للجاجة خلّتو يْعَبّي، سَلّم الورقة للشباب، أخدوها وأدخلوا المكتوب على الكمبيوتر، وقالوا له:

- هلأ طلبك صار مْحَوْسَبْ، وأعطوه رقم الطلب، اطلع على الطابق الثالث للمتابعة.

طلع الزلمة على الطابق الثالث، وهناك استقبله مسؤول ببدلة وكرافتّة، وسأله عن طلبه، فأخذ رقم الطلب واستعرض البيانات على الشاشة وقلّو: أنت هلأ في قسم مواصفات الدجاج، خود رقم الطلب وكلمة السر واقعد خلف أيّ جهاز من الكمبيوترات اللي حواليك، ادخل رقم الطلب وكلمة السّر، وجاوب على الأسئلة.

وبالفعل الزلمة صار مْضَيّع الوقت، وأكيد كُلّ بياعين الجاج صاروا مسكرين، وبدّو ياخد هالجاجة ويروّح، قعد خلف الشاشة، ودخل على البرنامج، ومباشرة ظهرت الأسئلة على الشاشة تباعًا:

- ما هو جنس الدَّواجن: جاجة أم ديك؟
- ما هو الحجم: صغير، وسط، كبير.
- ما هو اللون: أبيض، بُني، غير ذلك.
- ما هي طريقة الذبح: بالسكين، صعق كهربائي، غير ذلك.
- هل تريد الدجاج للشوي أم للطبيخ؟
- هل وهل وهل....

وبعد ما جاوب على كل الأسئلة، طبع موظف الطابق الثالث الطلب مع الإجابات وقال له:

- الآن على الطابق السابع للاستكمال والاستلام:

أخذ الرجل الطلب وطلع للطابق السابع، قابله مسؤول أعلى وأكثر أدبًا، أخذ منه الطلب وعرض قدامه على شاشة كبيرة ومؤثرات صوتية مقاطع فيديو عن جودة الدجاج، وأهميته للبشرية ودوره في توفير لحم أبيض، وتأثيره على الصحة والكوليسترول والأمراض المزمنة.

وبعد العرض اللي استمر ربع ساعة، صاح الزلمة وقالهم: يا خيي إنتو والجاج على راسي من فوق، بس اعطوني هالجاجة للملوخية خليني أرَوّح أتعشّى أنا والمَرا وأنخمد وأنام.

استهجنَ المدير صراخه، وتغيرت لهجته، وقال:

- بصراحة يا أستاذ: جاج! ما عنّا جاج، بس وين بعمرك زاح تشوف هيك سيستم ما بِخُرّ المي!!!

نظر نبيه للمسؤول بجدية وحزم وقال:

يعني يا صاحبي «جاج ما عندكم جاج ... يلعن أبو السيستم شيتكم (أي الخاص بكم).

لأول مَرَّة في حياتي وبالرغم من توجهاتي الإيجابية دومًا أقتنع بما قاله ويقوله نبيه عن السلطة والحكم الذاتي، ورُحْتُ أتذكر قصة الدجاجة والنظام البيروقراطي في كلِّ اجتماع لاحق مع أي مسؤول، وقد نجح الاحتلال بزرع الغربة والحقد بين التنظيمين الفلسطينيّين الأكبَرَيْن حتى وصلا إلى علاقة شبيهة بعلاقة جدتي حوريَّة الكبيرة بإحدى رفيقاتها، عندما طلبت مني اصطحابها إلى بيت العزاء بوفاة الرفيقة بالاسم، والعَدُوَّة في الحقيقة، فقدمت لنا بناتُها جُزء «عَمّ» من القرآن الكريم، طبعوه عن روحها، وكانوا يوزعونه على المُعَزِّيات، وعلى صفحته الداخلية الأولى طلبوا قراءة الفاتحة عن روحها، أخذته جدتي من يد إحدى البنات، وبعد أن قرأت الطلب على الصفحة الأولى أغلقته بحركة مستفزة ودسَّتْهُ في حقيبتها، لم يلاحظ أيُّ أَحَدٍ توتُّرَها سواي، وفور انتهاء العزاء وصعودنا إلى السيارة سألتها عن سببِ هذا التصرف الغريب. فقالت:

- هاي أختي وحبيبتي، بس قدام الناس، وبالشعارات والكلام، مش لدرجة إنّي أقرأ عَ روحها قرآن لَتروح عالجنّة! خلّي اللي بالقلب بالقلب قطيعة تقطعها.

لم يَعُدْ بين الأخوة في التنظيمَيْن الفلسطينيّين اللذيْن يتقاسمان ما تركه لهم الاستيطان من مناطقَ فلسطينية في الضفة وغزة سوى

الشعارات والكلام الإعلاميِّ، كما قالت جدتي عنها وعن صديقتها تمامًا! واتَّسعت رقعة الاستيطان حتى أصبَحَت المستوطنات في الضفة الغربيَّة متصلةً جغرافيًّا، وليست تجمعات سُكانيَّة متناثرة، فالطريق بين رام الله ونابلس -على سبيل المثال- امتلأت بسلسة حجرية من المستوطنات جمعت بين مستوطنة بيت إيل شمال رام الله بمستوطنة أريئيل جنوب نابلس، فأصبَحَتْ هناك دولة مستوطنين غير دولة إسرائيل، وأصبَحَ مجلسُ المستوطنات «ييشع» شبيهًا بحكومة الاستيطان، وحتى الجيش الإسرائيلي تغيَّرُ دورُهُ من حماية المستوطنين إلى كَبْح جماحهم حين يكون المناخ السياسي الإقليمي والعالميُّ غير مُواتٍ لمصادرة أَرْض فلسطينية جديدة، وأصبَحَ للمستوطنين قوى رسميةٌ تحميهم تحت عنوان الحرس القومي.

أما في القدس، فقد نجحت إسرائيل بشقِّ طُرُقٍ للقطار الخفيف تربط القدس الغربيَّة والشرقيَّة والمستوطنات المحيطة بالمدينة بعضها ببعض، لقد بدأت الأمور تتضح لدى الإسرائيليين، وقد أيقنوا أنَّ الأَرْضَ المحتلة في حرب عام 67 لن تعود بسرعة إلى أصحابها، ورُبَّما لن تعود أبَدًا، فبدأوا يستثمرون في بناء المستوطنات وتوفير السكن المريح والرخيص لليهود المتدنيين أصحاب المعتقدات الأيديولوجية والعقائدية العميقة، وبذلك أقيمت الكتل الإسمنتية القبيحة، وشَكَّلَتْ في البداية حلقةً خانقةً حول مدينة القدس، تمنعها من التنفُّس ومن التمدد، وتصادر أراضيها. ومع بداية العام 2006 تغيرت الفكرة لدى إسرائيل، وذلك بضمانها شبه الكامل أنَّ القدس الشرقيَّةَ لن تعود إلى السيادة الفلسطينية في أيَّة مفاوضات حالية أو مستقبلية، وبالرغم من أنَّ الكنيست الإسرائيلي صادَقَ على قانون توحيد القدس، ووضع الشطر الشرقي كالغربي تحت السيادة الإسرائيلية، إلّا أنهم لم يكونوا مقتنعين

بذلك، ولا يصدِّقونه، ولم يعترف لهم أيُّ أَحَد في العالم بهذا الوضع، ولا حتى الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا، وبقيت القدس الشرقيَّة حسب القانون الدولي أَرْضًا محتلَّةً مثلها مثل باقي الأراضي التي احتلت عام 1967م. تحولت السياسة العامة في الحكومة الإسرائيلية بعد توظيف كبير مستشاري رئيس الحكومة لشؤون «عرب شرقي القدس» كما يسموننا والذي كان مستوطنًا صهيونيًّا أصيلًا، وقد فقد إحدى يديه في عملية عسكرية ضد الفلسطينيّين خلال خدمته في الجيش، وبذلك كان يحمل الحقد الشديد على العرب، عمل المستشار على إقناع الساسة بأنَّ الوضع تغيَّرَ، وأنَّ عليهم الاستثمار في عرب شرقي القدس ليرتقوا قليلًا، وهذا ما سوف يسهل تهويد المدينة وأَسْرَلَةَ السُّكان، وضمّهم فيما بعد كأقلية إلى جانب إخوانهم من فلسطيني الـ 48 داخل إسرائيل، وبذلك بدأت البرامج والميزانيّات تنكبُّ على القدس الشرقيَّة، وأنشئَت المؤسساتُ لذلك، كما تمَّ هضمُ فكرةِ أنَّ المستوطنات حول القدس هي جزء من المدينة، طُبِّقَتْ هذه السياسة بخبث وبطء شديدين، حتى لا يستثيروا حفيظة أَحَد، وكان من تلك المشاريع مشروع القطار الخفيف الذي يربط وسط المدينة بالمستوطنات شمالها، ويبدأ من جبل هرتسل في الوسط وحتى مستوطنات النبي يعقوب وبيسغات زئيف المقامتَيْن على أراضي قرية بيت حنينا الفلسطينية، وضمن مشروع التهويد المختفي خلف القطار، وتسهيل المواصلات والوجه الحضاري للمدينة، قررت البلدية أن يَمُرَّ القطار بجزءٍ من مساره في حيِّ شعفاط العربي، وأكثر من ذلك، فقد وضعوا على المسار محطات للركاب العرب، حتى يستخدموا القطار بجانب المستوطنين، ووظَّفوا العشرات من أفراد الأمن ليفحصوا كل من يصعد إلى القطار، أو يقف على المحطة ينتظره في المقطع الذي يمرُّ في الحَيّ.

تغيَّرَتْ سياسةُ الاحتلال، ونحن بقينا كما نحن، نُخَوِّنُ بعضنا البعض، ونزايد بالشعارات على الجميع، ولا نتفق على قيادة، ولا يعجبنا أحَدٌ، وكُلٌّ يُغَنّي على لَيْلاه!

وفي أحَدِ أيّام تمّوز من العام 2014، خرج كلُّ أَهْلِ القدس ليبحثوا عن الطفلِ محمّد أبو خضير من حَيِّ شعفاط، والذي يسكن مقابل محطة القطار الخفيف، وقد عُثِرَ على جُثَّته في أحراش القدس بعد أن اختطفه المستوطنون وأحرقوه وهو على قيد الحياة، هرَعْتُ مع أصدقائي الصحافيين لتغطية الحدث في شعفاط، وقد ثار السُّكان ونادوا بالانتقام لمحمد، وكان أوَّلُ ما تمت مهاجمته هو محطة القطار!

وصلت المحطَّةَ، وكانت قد أُحْرِقَتْ بالكامل، وتعطَّلَ سيرُ القطار في المقطع العربي، وجدت بعض الفتيَة الغاضبين يتجمعون في الشارع، وكان أحَدُهُم قد تسلَّقَ عَمودَ إنارة في المحطة، وبيَده عصًا طويلةٌ يحاول أن يكسر اللامبة المعلقة بها، سألْتُهُ بعد أن أتمَّ مَهَمَّتَهُ ونزل عن العمود:

- لماذا تكسر اللامبة التي تضيء شارع بيتك؟
- لأنهم قتلوا ابن عمّي (أجاب الفتى).
- وما دخل اللامبة في مقتل ابن عمك؟ (سألت).
- حَطّوا هاي المحطة والضّواو هون عشان يضحكوا علينا وننسى إنّا عرب وأعداؤهم، وعشان نْفَكِّرْهُم أصحابنا وِنْأَمِنْ الْهُمْ، فيقتلوننا بدون ما نرفَعْ راسنا ... بَس فَشَروا!

بهذه الإجابة خَسِرَتْ سياسةُ الحكومة، ولم تُحَقِّقْ أهدافَها أبَدًا، فحتى الطفل في القدس لا يمكن الضحك عليه بقصة سَدِّ الفجوات بين المجتمع اليهودي والمجتمع العربي، وعند أصغر مواجهة يعود كُلُّ كائن حَيٍّ إلى أصله، لم ينجحْ كبيرُ المستشارين من تحقيق رؤية القدس الكبرى الإسرائيلية الموحدة، ولم ينجح في غسْلِ عقول أبناء المدينة البسطاء

«شباب القدس»، أولئك الذين لا ينتمون بالفعل إلى أيِّ لونٍ سياسيٍّ محدد، الذين يدعون فطيرة الجبنة «مشولاش چفيناه» ويفطرون بطريقهم إلى المدرسة أو إلى العمل لدى رَبِّ العمل الإسرائيلي «العوچاه» أي كعكة الشكولاطة، الشباب الذين لا يتقنون العِبْرِيَّةَ بكامل تفاصيلها، فيخلطون بين حَرْفَيِّ الهاء والألف؛ لأنهم يسمعون الكلمات من الأشكناز ويرددونها بدون أن يطالعوا الصحف أو يبحثوا في القواميس، فيسمون الاستراحة «أفسكاه» بدل «هفسكاه»، وقهوة الأسبرسو «أفوخ» بدل «هَفوخ» وينطقون الخاء بدل الحاء الأصليَّة في اللغة أَسْوَةً بمن جاء من بولندا وأمريكا ولا يوجد حاء في لغته الأصلية، شباب البلد المصممون «بالخاوا» أنَّ هذه أَرْضُ فلسطينَ ولهم فيها كلُّ شيء.

سوف تتحطم أحلام الدولة القوية التي تملك الأسلحة النووية، وتحاول أن ترتكز على أيديولوجية وطنية، وتسمي نفسها يهوديَّة وديمقراطية إنَّما أساسها الحقيقي هو استعماري بحت، أمام إرادة شاب بسيط تآمرت عليه كلُّ أجهزة الاحتلال، ودرست ميولَهُ وتطوُّرَهُ وتوجهاته من خلال مؤسسات بحثيَّة بالغة الحنكة والذكاء، ورصدت الدولة المليارات لإتمام عملية التدجين لجيلٍ كاملٍ، حتى يتسرَّبَ من المدرسة بحثًا عن لقمة العيش في البداية، ولتهتز ثقته بنفسه وبشعبه وبرموزه، حتى يشعرَ أنَّهُ وَحْدَهُ في هذا العالم، وليس له أيُّ مرجع سوى مصلحته الشخصية، ليغدو مهزومًا من الداخل، ويصبح «كافر سبت» يخدم اليهود بما يريدون سواء بالسبت أو بغيره، كما كان زوجي نبيه، يريدوننا أياديَ عاملةً رخيصةً في شوارعهم وحاراتهم ومنشآتهم التي يتغنّون بها، سواء بدولة أبرتهايد أو بحُكْمٍ ذاتيٍّ، أو بأيِّ شكلٍ من الأشكال، فلا ضيرَ أنْ يكونَ لدينا عَلَمٌ ونشيدٌ وطَنيٌّ، ومنتخَبٌ لكُرَةِ القَدَم نركض أمامه في الملعب، ولكنْ دولةٌ واستقلالٌ وسيادةٌ، فهذا لم يكن أصلًا الهدف من

أيَّة تسوية أو عملية سلام تَمَّ إطلاقها خلال السنوات الخمسين الأخيرة، أذكر أنَّ أبناءَ الحَيِّ جاءُوا ليزوروا نبيه بعد أنْ ضَرَبَهُ أبناءُ المستوطنين، وكادوا أن يقتلوه أمام منزلنا، كانوا شبابًا يافعين ينادون نبيه بـ «عَمّو» وكان هو يُحبُّهُم ويخافُ عليهم من التَّهوُّر، ليس لأنَّهُ متخاذلٌ، بل لأنَّ تجاربَهُ التي كان دومًا يقصُّها علَيَّ جعلته يدرك أنَّ الحلَّ ما زال بعيدًا، أنَّهُ علينا الحفاظ على أبنائنا حتى يشتدَّ عودُهم، كان الشباب يبحثون عن الانتقام لعمّو نبيه، فقال لهم بهدوء ووضوح:

ما تعطوهم اللي بدهم إياه، كلّ روح من أرواحكم غالية كتير، معركتنا لسّاتها بأولها. هذا الاستعمار عُمْره بس قرن من الزمان، بعرف إنّو مش قليل، ولكن كمان مش كتير في التاريخ، الصليبيون كانوا أقصر فترة احتلال لهاي الأرْض، مرقوا فيها وقعدوا 88 سنة! فما بالكم باللي جاي ومقتنع إنّو هاي أرْض الميعاد اللي وعده فيها الله!

قفز أحَدُ الشباب المتحمسين الذين يبدو عليهم النقاء والشجاعة وقال:

- بَس يا عَمّو إذا سَكَتْنالْهُم بتمادوا! اليوم أنت وبُكرا واحد فينا!

- سكَتَ نبيه لوهلةٍ وَكأنَّهُ يُحصي مفرداته، ويُحَضِّرُ كلماته بعناية شديدة:

- اسمعْ يا حبيبي، في يوم من الأيّام أوقَفَني شُرطيٌّ إسرائيليٌّ قُبالةَ مدرسة المأمونيَّة بْنُصِّ البَلد، شرطي طَبْعًا عنصري، وكان لديه قرارٌ بأنْ يُخالفَني مَهما كان، فحَصَ الرُخَصَ والأوراقَ والسّيارة من العجال للكراسي ما لاقى إشي يْخالفْني عَليه، وبعد ما رَجَّع أوراقي وقالّي «ساع» يعني إمشي، نادى عَلَيَّ قبل ما أتْحَرَّكْ وْسَألْني:

- يش لَخا «جير»؟ معك طبشورة؟ ضحكتُ لأنّني كنت متأكّد إنّو بمْزَحْ معي أو بسْتَهْبلْني، طَبْعًا مَعيش طبشورة، سَحَبَ دفتر المخالفات، وبدَأ بتسجيلِ مخالفةٍ بحجَّةِ «عدم وجود طبشورة في السيارة».

أنا ما قبلت آخذها، ورحت ع المحكمة وأجا الشرطي وطلع إنو في كلّ سيارة لازم يكون في طبشورة عشان إذا ضربت حدا بالسيارة تنزل وترسم بالطبشورة على الشارع وين وقع المصاب، وهادا بند بالقانون، خسرت أنا وانتصر هو.

وأكمل ردّهُ على الشاب:

- هدول ناس حاسبين حساب لكلّ شي يا عمّي، وعاملين لكلّ حالة قانون ومبرّر، وما بنفع نتعامل معهم بردّة الفعل أبدًا. عشان هيك تذكّروا الطبشورة، وفش حاجة نعطيهم فرص ينجحوا أكثر بسببنا.

كان جهدُ الدولة العظيمُ يتحطّمُ في كلّ مواجهة أمامَ إرادة أبناء المدينة وتضحياتهم الحقيقية بكلّ شيء، حتّى بأرواحهم إنْ تطلّبَ الأمرُ ذلك، تراكمت الأحداثُ في القدس حتّى أصبحَ كلُّ فلسطينيٍّ مَهما كان عمرُهُ يَعتبرُ نفسَهُ كيانًا مُدافعًا عن المدينة وعن عُروبتها وكرامتها، لقد انقلبَ السِّحْرُ على السّاحر، وباتَتْ إسرائيل تدفعُ ثمنَ تدمير الرّموز الوطنيَّة وإغراق الفصائل والأحزاب بالفساد، طَفا على السَّطح جيلٌ جديدٌ يعرفُ أنَّهُ ليس هناك أهميةٌ لمَنْ سوف يقطفُ الثّمارَ في النهاية، ولا مشكلةَ لديه في ذلك، يناضلُ بتمَسُّكه بأرْضه ووَعْيه وتطوُّره العلميِّ والأكاديميِّ، جيلٌ من الشباب يمتلكُ الفكرَ والأيديولوجيا والإيمانَ الكافي بالحقّ، يسعى للحفاظ على الأرواح، ولكنَّه لا يتنازلُ أبدًا، وفي كلِّ واحدٍ فيهم أيقونةٌ ورمزٌ.

الفصل السابع:

الوقاحة «حوتسباه»

رونيت بنت حاييم إرليخ:
100 عام على النصر السياسي
والفشل التاريخي

تقدَّمَ لي إتسفيكا لأتعرف عليه وعلى عائلته في يوم أسود، انتظرتُ قبل ذلك اليوم عدةَ سنوات، منذ أنْ أصبحتُ مؤهلةً للزواج لفارس أحلامي الأشكَنازيّ الأصيل، لنتبارك معًا تحت «الخوباه» الخيمة التي يعلننا تحتها الحاخام زوجًا وزوجةً يوم زفافنا، ولكنه لم يأتِ! رُبَّما لشكلي أو ببساطة لأنني لا أنتمي بأفكاري التي أخفيها عن الجميع حتى الآن - بما فيهم زوجي إتسفيكا- لأي فئة من فئات المجتمع الإسرائيلي الحالي، وأتستَّرُ بقناع التواضع، وأتَّبِعُ ما تفعلهُ نساء الحريديم الأشكناز في حياتهنّ الرتيبة.

كان إتسفيكا هو الخيار الأفضل في حينه، فأُمُّهُ أشكنازيةٌ أصليةٌ، وشكلُهُ لا يوحي بعلاقته باليهود الشرقيين، وهذا ما كان مُهِمًّا لأهلي، أن يكون شكلُهُ الخارجيُّ ملائمًا لصِهْرِ عائلة إرليخ السويسرية، ولو كانت عيناه خضراوين أو زرقاوين لَلَبّى جميعَ المتطلبات لنَسيب عائلتنا اليهودية الأوروبية، ولكنَّ أمّي وأبي تغاضيا عن عينيه البُنِّيَتَيْن بسبب إصراره الشديد على الزواج بي، ولأسباب أخرى لستُ متأكدةً منها، ولكنَّهما كانا يَشُكّانِ أنَّ منظومة التعارف و«الشيدوخيم» سوف تجلب لي ما أريد، ولا يوجد في بيئتنا المتدينة أيَّةُ وسيلة أخرى للزواج، وبذلك قبلوا بإتسفيكا. ولا ننسى أنَّ أمّي حينها قد تخطَّتِ الستين من العمر، وأبي كان في منتصف السبعينات، ولا بُدَّ أنهما يفكران بمستقبلِ حياتنا أنا وأختي دونهما.

التقينا بموعد مُرَتَّبٍ مسبقًا في الحديقة العامة، وأرسلَ أبي معي أختي الوحيدة التي تصغرني بخمس سنوات كي تراقب تحركاتنا، وتخبرَهُ بها فورَ عودتنا من موعد التعارف، بصراحة... لم أستمعْ ولا لكلمة مما قاله إتسفيكا في ذلك الموعد الوحيد قبل الزواج، كان من الواضح عليه أنه يهتم بفكرة الزواج مني أنا بالتحديد أكثر من اهتمامه

بتفاصيل العروس وشخصيتها، فخلال ساعة تقريبًا من اللقاء كان يرسل ولا يستقبل، يخبرني عن العائلة التي يريد أن ينشئَها، عن أُمِّه، وضرورة اهتمامي بها، وَكأنَّها أحدُ أقاربي؛ لأنها هي أيضًا من أوروبا مثلي أنا وعائلتي، وعن مخططاته لتملك بيت في أفضل أحياء المدينة وأكثرها قداسة، على أن يكون لذلك التملك أبعادٌ وطنيةٌ، ويساهم من خلاله بتثبيت يهودية أورشاليم، وفي النهاية سألني وهو ينظر إلى خشب المقعد الذي نجلس عليه ويحرك بيده يمينًا ويسارًا:

- رونيت، هل تعتقدين أنه إذا تزوجنا سوف يدخلني والدك إلى المدرسة الدينية «اليشيفاه» الخاصة بأشكيناز سويسرا؟

استغربتُ من السؤال، ولم أفهم أبدًا ما يرمي إليه، فكم كنتُ غبيةً في ذلك الوقت، كي لا أدرك ما الذي يجعل إتسفيكا مصمِّمًا على الزواج بي، وهو لا يعرف عني شيئًا، وما أبدو عليه من الخارج لا يحفِّزُ أيَّ أحدٍ للحاق بي!

ولدت لعائلة من المتدينين الوطنيين الأشكيناز، فوالدي (زخرونو لبراخاه) ذكراه مباركة، كان طبيبًا مشهورًا، كانت عائلة أمّي وعائلته جيرانًا في نفس الحي اليهودي في مدينة زيورخ السويسرية قبل الهجرة إلى إسرائيل، وقد كبرنا أنا وأختي الصغيرة ونحن نستمع إلى قصة مغامرات جدّي لأبي وجدّي لأمي حين دعاهما ثيودور هرتسل لحضور المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل عام 1897م، وكيف دخلا إلى قاعة المؤتمر متأخِّرَيْن 19 دقيقة بعد أن تعرضا إلى السرقة حين توقفا للاستراحة على الطريق، وكيف تحولت المسافة التي لا تزيد عن 90 كيلومتر إلى كابوس حقيقيٍّ انتهى بولادة الحلم اليهودي الصهيوني، والغريب بالأمر أنَّ أبي وأمي كانا يرويان القصة عن والديهما وكأنَّهما كانا هناك.

لقد اعتدت أن أظهر من الخارج كما أراد والديّ للبنت البكر بين بنتين في البيت، فكان عليّ أن أجاري البيئة المحافظة والمتدينة جدًا، بالرغم من أنّني أعتقد أنَّ روحي الصهيونية العلمانية كانت تتمرد أحياناً حتى ولو كان ذلك التمرد بيني وبين نفسي. تزوجنا أنا وإتسفيكا حسب التعاليم اليهودية الكاملة، ولم نتخطَّ أيَّة مرحلة من المراحل المتبعة من القرن الثالث عشر وحتى اليوم، فزوَّجَنا الحاخام تحت (الخوباه) خيمة الزواج، ومن ثم أحضروا لإتسفيكا كأسًا من الزجاج ليكسره برجله، وكان يتمنى لو استبدلوه بكأس من البلاستيك الخفيف، لأنَّ كسر الكأس هو تقليد نتذكر فيه نحنُ اليهود خرابَ الهيكل وهدمه، وعدمُ النجاح بسحقه عند ضربه بمشط قدم العريس يُعَدُّ فضيحة، ضرب إتسفيكا الكأسَ أول مرة فقفز إلى خارجَ الخيمة ولم يُكسر، ولكنه لحقه إلى الخارج، وخبَطَ عليه بكل ثقله مرةً تلو الأخرى حتى تحطم بعد المحاولة الثالثة، استغرب أبي من هذا الإصرار، ومن ملامح النصر على وجه إتسفيكا عندما نجَحَ أخيرًا بمَهَمَّته.

أَصَرَّ إتسفيكا على أبي أن يكون الحاخام الذي يُزَوِّجُنا تحت «الخوباه» هو الحاخام أفنر المسؤول عن المدرسة الدينية ليهودِ سويسرا، فَفَعَلَ أبي دونَ أن يُفَكِّرَ في الطَّلَب.

نَجَحَ زَوْجي لاحقًا بتحقيق أَغْلَبِ أحلامه، فكان للحاخام أفنر دورٌ بامتلاكنا بيتًا في قلب أورشليم، ويبدو أنَّ إتسفيكا خطَّطَ لكلِّ ذلك قَبْلَ الزَّواجِ بي، وَمَنَّ علينا الرَّبُّ بالغنى عَبْرَ كَشْفِه أمامَنا مغارةً كانت مدفونةً تحت ساحة البيت، وكنتُ قد نجحْتُ «بتقديمها» إلى الشعبِ اليهوديِّ مع بعض التعديلات الضرورية على القصَّة، والاستغلالِ الأمثلِ للصُّدْفَة!

ومنْ يومها أصبحْتُ أُرافقُهُ عُنْوَةً إلى مُؤتمراته وخطاباته، فلن أسمحَ له بعدَ أنْ ساعدتُهُ عن قصدٍ أو بمجرَّدِ زواجِهِ بابنةِ الطبيبِ إرليخ - ما كان

يتغنَّى به أمام حاخامات اليشيفاه السويسرية- على أن يبنيَ مجدَ النَّجم الصاعد، والقائد المُلْهم الواعد، فلم يعد مسموحًا له أن يستثنيَني من المشهد العام، فإنْ وَفَّقَهُ الله بأنْ يفوزَ بانتخابات الكنيست «البرلمان» فربَّما يتدرَّج بالسياسة، فأصبح في يوم ما سيدةَ إسرائيل الأولى!

سمعتُهُ يتحدَّثُ مع جارنا يوناتانَ عن خطابه التحضيريِّ لمعركة الانتخابات القادمة في مستوطَنَة بيت إيل، فقلتُ له:

- إتسفيكا، إنّي قادمةٌ معكم، فلا تعترِضْ!

حاول بشتى الطُّرُقِ أن يثنيَني عن مرافقته، ولكنّي لم أقبلْ، فأخذَني معه على مَضَضٍ.

استفزَّني إتسفيكا في خطابه أمامَ الجيل الجديد من المستوطنين، ليَكْسَبَ معركتَهُ الانتخابيّةَ، وتفاجأتُ أنَّهُ ذَكَرَ أسماءَ كُتُبِ هرتسل التي أعلمُ تمامًا أنَّهُ لم يقرأْ أيَّ واحد منها، إتسفيكا لم يقرأْ إلا كتابًا واحدًا فقط طيلةَ حياته، وبدأ قراءتَهُ بعد أن أدخَلَهُ والدي إلى اليشيفاه، وهو «التّناخ» الكتاب المقدس.

لقد كان حلمُ هرتسل كما سمعتُ من أبي، وكما تعلَّمَهُ هو من والده الذي سُرِقَ في طريقه إلى بازل من مدينته زيوريخ أنْ يبنيَ دولةً لليهود، وعندما قال: «إنَّها ليست خُرافة» لم يقصد الفَوْزَ بالانتخابات التي يتنافَسُ فيها اليهودُ مع اليهود، ولم يكن يرمي إلى قَتْلِ بعض العربِ الساكنينَ في الشطاحيم «المناطق الفلسطينية» هنا أو هناك! فالهدفُ كان أسمى ما في الوجود، وهو إقامةُ وطنٍ قوميٍّ لليهود على أرْضِنا الموعودة.

لقد صدَمَني إتسفيكا عندما رأيْتُهُ يعطي المالَ النَّقديَّ من خَلْفِ الكواليس للشبابِ الأرعَنِ لشراء الأسلحة المسروقة من جيش الدِّفاع، هذا السلاحُ الذي كان يُسرَقُ من جيشِنا النِّظاميِّ، ويباعُ لبعضِ الجَهَلَةِ

الغوغائيين، فيقتلون به الأغيارَ من العرب! كان ثورةً هزَّت أركاني من الداخل. والقضيةُ هنا ليست قَتْلَ العربِ أو غيرِهم، بل هي الدولةُ ذاتُ السيادة التي أرادها هرتسل، وهي فوق الجميع، أذكر القصة المشهورة التي كان يُكَرِّرُها والدي عندما تحتدم الأمور في الانتخابات بين الأحزاب المتنافسة، وكان يُخبرُنا بها دوْمًا، وكانت تلاوتُه الوعظيةُ غالبًا ما تدقُّ أعماقَنا عندما يغترفُ حِكَمَهُ من بحر التاريخ، فيقول:

يا بنات، لقد قَصَفَ بنْ غوريون سَفينة (آلتالينا) المُحَمَّلَةَ بالأسلحة والمَعَدَّات الطِّبِّيَّة القادمة من فرنسا، وأغرَقَها قُبالةَ شواطئ تل أبيب بعد حرب الـ 48 بخمسة أسابيعَ، ولم يكن ذلك إلا بسبب عدَم انصياع قيادة تنظيم الإيتسل برئاسة مناحيم بيغن لأوامر الحكومة الوليدة والدولة الناشئة بتسليم السلاح القادم لتنظيمهم للجيش الوليد، فأَمَرَ بقصفها وهي قُبالةَ الشاطئ، بعد أن رَفَضَ أن تَرْسُوَ في أيِّ مَرْفَأ دون اتّفاقٍ على تسليم حمولتها للجيش، وكاد يتسببُ بحربٍ أَهْلِيَّةٍ إسرائيليَّة تقضي على الدولة التي لم تُحْطَمْ بعد، وذلك مقابلَ توحيدِ القوى جميعها، وعدم السماح بتقويض حلم الدولة المستقلة الواعدة، كان المبدأ هو إنشاء دولة فوق رؤوس الجميع، وليس كيانات متمردةً تتقاسمُ غنائمَ النَّصر، وتوزِّعُ أَرْضَ إسرائيل بينها، لم يكن بالإمكان تكرارُ أخطاء اليهود من قَبْلِ أَلْفَيْ عام، عندما كان في أَرْضِنا الموعودةِ مَمْلَكَتانِ؛ مملكةُ يهودا في الجنوب ومَملكةُ إسرائيل في الشمال.

هذه كانت رؤيةَ الدولة التي نريد على أَرْضِ إسرائيل، وهي التي أرادَها ووصفَها هرتسل على لسان دافيد لوتفيك، في رواية أَرْض قديمة- جديدة، وليس ما قالَهُ واقتَبَسَهُ إتسفيكا زوجي الأهوجُ بتَصَرُّفٍ، والذي يكاد يكون تزويرًا للفكرِ الصّهيونيِّ.

وبعد أن انطلقنا عائدين إلى بيتنا في أورشاليم، ساق إلعاد سيارة السوبارو، واتكأ جارُنا يوناتان على جانبه الأيمن، وبمجرَّد تَحَرُّكنا غَطَّ في نوم عميق، كنت لا أطيق أن أراهُ، ولَمْ أفهمْ ما سرٌّ تَعَلُّقِ إتسفيكا به، حتى اكتشفتُ بالصُّدْفَة أنَّهما تشاركا في مَصْنَع لصناعة أغطية الصلاة «الطاليت»، وكانا يعتقدان أنَّني مُغفَّلَةٌ، ولن أستطيعَ أن أعرف، ولكنَّ مشيئةَ الرَّبِّ جعلتْ إحدى السّيِّدات الأثيوبيّات المتديِّنات تصادفني في الكنيس، وبدأتْ بحديث ظاهرُهُ فيه التعارف، وباطنُه فيه الخبث والمكر، فالموقفُ لم يكن فيه مجالٌ للتعارف أصلًا، كان الكلامُ مفتعلًا ووهميًّا؛ فهي تعرفُ جيدًا مَنْ أكون، وبعد بضع كلمات تمهيديَّة سألَتْني:

- أنت رونيت إرليخ زوجة إتسفيكا أشكنازي، ألستِ كذلك؟

فأجبتها:

- وكيف تعرفينني وزوجي؟

أخذت تلومني بصوتٍ مرتفع جَعَلَتْ كُلَّ النِّسوة من حولنا ينتبهْنَ إلينا، تتحدث عن مخالفة القانون، وعدم تسجيل زوجها في الضرائب والتأمين الوطنيِّ، واستغلال وضعِهم، وتشغيل زوجها في مصنع الطاليت دونَ أدنى الحقوق المكفولة له في القانون. فصرخْتُ بوجهها:

- أيُّ مصنع وأيُّ طاليت؟ زوجي ليس له أيَّةُ علاقة بالصناعة أو التجارة! نحن من اكتشفَ مغارةَ الأجداد، ولا نعيش إلّا لأجل خدمتها وخدمتكم!

وبعد أن اضطررت للصراخ بوجهها لترى ماذا يعني أن تُوَجِّهَ لنا الاتهامات بالباطل، أصَرَّتْ أن أرافقَها لأرى بعيني، وفي اليوم التالي تهرَّبْتُ من البيت صباحًا قبل أن يستيقظ إتسفيكا، وقبل أن تبدأ المجموعاتُ التي تزورُ المغارةَ بالتَّوافُد، أخَذَ إلعاد الأولادَ ليوصلَهُمْ إلى مدارسهم في القدس الغربية مع أقرانهم من أبناء المتدينين الوطنيين، اتفقْتُ معها

أن نلتقيَ عند باب السوبر ماركت في حَيٍّ مَعلوت دفناه المجاور، وبمجرد دخولي إلى تلك الورشة عرفْتُ أنَّها لزوجي إتسڤيكا! اعتقدَت السيدةُ أنَّ صمتي المطبقَ الذي خيَّمَ على روحي وقلبي قد تشكَّلَتْ غيومُه بسبب أنني لا أُصَدِّقُها، وهي لا تدري أنَّ في داخلي إحساسًا عارمًا من الصدمة، وأنَّ العبارةَ التي قرأتُها على لوحة معلَّقة على واجهة الورشة حملَتني إلى ذلك الصوت الأجشِّ الذي يخرجُ من حَنجرة زوجي المتعجرف، وها أنا الآن أقفُ في مواجهة جديدة. أخَذَت السيدةُ تحاولُ أن تثبتَ لي روايتها بالطلب من العمال هناك، ومن بينَهم زوجها أنِ يعترفوا أمامي بمن يُشغِّلُهُم هناك، لم تكن تعرف أنَّهُ لا حاجة لذلك أبَدًا، فصوتُ إتسڤيكا معلَّقٌ على اللوحة:

«هاعيكار إينوها إيكار...» أي الأساس هو ليس الفلاح... وبالطبع لم ولن يفهم أحد هذه الجملة إلا مَنْ يعرفُ تكملَتَها، ويعرفُ إتسڤيكا جيدًا، كان هذا المثل أو المقولة على لسانه دوْمًا، يكررها أمامي في كُلِّ مناسبة، ولا أعلم حقًّا من الذي علّمه إياها، ولكنه كان ينسبها إلى حُكماء إسرائيل، مع أنَّني لم أجدْها في أيِّ مرجع أو كتاب، وقد استفزَّني في كلِّ مَرَّة قالها فيها، لما كان يصاحبُ ذلك من عنجهية وغرور يخفيهما خلف العبارة الملغومة، وخاصة أنه كان يتفنَّنُ في إطلاقها بحروفٍ تفيضُ عنصريَّةً، وخاصة بحقِّ النساء، وقد كانت التكملة:

- الأساس هو ليس الفلاح، إنما ابنة الفلاح... والأساس ألا يكون الفلاح في البيت»

عملتُ جاهدةً على إخفاء صدمتي وغضبي، ولكني عندما عرفتُ من العمال مَنْ هو شريكُهُ، فهمْتُ لماذا يُخفي عنّي مشاريعَهُ الاستثمارية، وهذا ما جعلَني أتعاملُ مع الموضوع بحكمة وروِيَّة، وأجتهدُ على ألا أتحدث حوله إلا عندما يأتي يومه، والأيامُ قادمةٌ لا محالة.

جلس إتسفيكا بجانبي في المقعد الخلفي لسيارة السوبارو، وبعد عدة دقائق من اجتيازنا لبوابة المستوطنة في طريق العودة إلى أورشاليم، انفجرْتُ به:

- إتسفيكا! أتاه ميشوغاع؟ «هل أنت مجنون؟»

لم يتوقع إتسفيكا سؤالي ولا هجومي، وحاول أن يستخفَّ بي ويُسكتَني، ولكنَّني أكملتُ بوجهه كالقطار الهادر:

- كيف تفكر وتدفع أولئك المستوطنينَ الجُدُدَ نحو دولة ثالثة داخلَ أرْضِ إسرائيل؟ هل جئتُ معكَ اليوم لأشهدَ على نكسَة شاملة في مشروع وطننا القوميّ، نحنُ اليهودَ «عم هاسيفر» شعب الكتاب أقمْنا دولةَ اليهود على «إيريتس يسرائيل» أرْض إسرائيل مع أكثريّة يهوديَّة، ولكنَّنا نجدُ يهودَ اليوم محبوسين بين النَّهر والبحر بأعداد شبه متساوية مع أولئك العرب! وبدل أن نحافظ على الأكثريَّة اليهوديَّة تحت لواء دولة واحدة، أجدُكَ تُحَرِّضُ الشبابَ الأرعنَ على التَّمَرُّد!

فتح إتسفيكا عينيه، واضطجَعَ إلى الخلف حتى لامس رأسُهُ زجاجَ شُبّاك السيارة، نَظَرَ إليَّ باستهجانٍ واستهزاءٍ وقال:

- «ماه آت أوميرت؟» ماذا تقولين يا رونيت؟ «آت رتسينيت؟» هل أنت جدية؟

استفزَّني إتسفيكا أكثرَ من الأول، فارتفع صوتي حتى قفَزَ يوناتان منْ نومه الثقيل، وقطعَ صُراخي شخيرَهُ، فتح يوناتان عينيه، ثمَّ فركَهما بأنامل يده اليسرى التي كان قد دسَّها بين كرشه وحزام سرواله، تمتم قائلًا لنفسه:

- سوف تتحوَّلُ السيارة إلى ساحة معركة الآن.

ثم نظر إليّ باحتقار، وأزاح رأسَه نحو إتسفيكا الذي بادله نظرات الاستياء، ثم حرّك أصابع يده ببهلوانية وكأنه ينفض الهواء من حوله وقال:

- يوناتان، لا تكترث.. كلام فارغ!

أشعلتْ نظراتهما وكلامهما الفتيل أكثر وأكثر، بحلقتُ بإتسفيكا حتى شعرتُ أنّ عينيّ قفزتا من وجهي، وأكملتُ صراخي:

- كيف تقفُ أمامَ الجماهير، وتقول إنّنا سنتركُ كلَّ الوظائف التافهة للعرب ليقوموا بها من أجلنا، انْظُرْ حولك يا إتسفيكا، إنَّ اليهودَ يتداوون في مستشفيات إسرائيل على يد الأطباء العرب، ويشترون من بقالات العرب، وفي الجامعات هناك أيضًا عَرَبٌ يُدَرِّسونَ أبناءَهم العلومَ والهندسة حتى لو باعوا بيوتهم من أجل العلم! وبدل أن تحفّزَ شبابَ المستوطنة ليتعلموا ويسيطروا بالمعرفة والحضارة، تعطيهم المال ليشتروا السلاح ويقتلوا العرب!

لم يفتح إتسفيكا فَمَهُ، ولكنْ لم يَبْدُ عليه أيْضًا أنَّهُ يُفكّرُ بما قُلْتُ، سُخريةُ القدَرِ جعلَتْ يوناتان الأحمقَ يتشجَّعُ لِنُصْرَةِ شريكِهِ السِّرِّيِّ في الأعمال، فقال بهدوءٍ شديد:

- هذه عَظَمَةُ الشَّعبِ اليهوديِّ يا رونيت، نحن نركضُ للمستقبل! فالطِّبُّ الحقيقيُّ تُنَفِّذُهُ الروبوتات الآن، ونحن مَنْ يخترعُها ويصنعُها، لا تقلقي، فنحنُ نتركُ الطِّبَّ والطّبابةَ للعرب، وسوف نُسَيْطِرُ على أدواتِهم ونجعلُ منهم ممرّضين للسَّهَرِ فقط على راحتنا، فالتَّطبيبُ الحقيقيُّ بالتّكنولوجيا.

لم أَدْرِ هلْ أضحكُ أم أبكي! ولكنّي تمالكْتُ أعصابي، وقرَّرْتُ أنْ أتماشى معه، وأُوَجِّهَ كلامي المنطقيَّ له، ولكن ليسمعه إتسفيكا، فلا أمَلَ

من يوناتان أبَدًا، ولم يكن لديَّ أدنى شكٍّ بأنَّ مداخلَته هذه سَمعَها في أحد الفيديوهات التي يُدمِنُ حضورَها على شبكة الإنترنت، ولا يَفهَمُ مما قال شيْئًا:

- أنا لا أعرف بالتكنولوجيا يا يوناتان، ولكن هل من الصحيح أن تُسَلّموا رِقابَنا لهم؟، عليكَ أنْ تتذكَّرَ لماذا نحن هنا! الحلّاقُ أخطرُ على أرواحنا من صانع الصَّواريخ؛ لأنَّ رِقابَنا بين يَدَيْه برغبَتنا، وسلاحهُ يلامسُ حناجرَنا برضانا!

أخذتُ على عاتقي إعطاء يوناتان ومن يجلس خلْفَهَ ويستمع بدون أن يصغيَ أو يتدخلَ درْسًا في التاريخ القريب، فشرحتُ له كيف اعتمدت الصهيونيةُ على التَّخطيط طويل الأمَد، ولم نخجلْ نحن صهاينةَ هرتسل من استغلالِ كلِّ فرصة، وكُلِّ صُدفة، وكيف عملْنا على تَجْييرِهِمْ لمصلحتنا، فهذه هي الـ «حوتسباه»؛ الوقاحة المعهودة في جيناتنا، ونحن نفتخر بها، ولا تعيبنا بشيءٍ طالما أنَّ المصلحة العامة متوفرة.

نظرْتُ في وجْه إتسفيكا، فكان مصدَوْمًا مما أقول، وربما جيناتُهُ الشرقيةُ المدفونةُ بداخله هي التي استنفرَت الآن؛ لأنّي أجلدُ شريكه، وأغوصُ فيه إهاناتٍ مبطَّنةً أمامه، قاطَعَني مُستنفرًا، وقال:

- رونيت، «تفسيكي!» توقَّفي، ولا أدري عن ماذا تتحدثين، إسرائيل اليوم أكثرُ يهوديَّةً مما كانت في أيِّ يوم سابق، ونحن اليمينيّين المتديّنين نحكمُ البلادَ بعد انهيار معسكر اليسار الذي تصالَحَ مع العرب، وأراد أن يُسلّمَ رؤوسَنا للفلسطينيين، فهؤلاء اليساريون أعطوهم السلاح، وأدخلوا قياداتهم إلى يهودا والسّامرة وغزَّةَ، ولم يبقَ إلا تسليمهم «هار هابيّت» جبل الهيكل-المسجد الأقصى- بِحُجَجٍ واهيةٍ أهمّها صناعة السلام، وتجنُّبُ الخطرِ الديموغرافي.

يبدو أنَّ إتسفيكا لم يفهم ما أقوله، لذا اضطرَّني رَدُّهُ السّاذجُ لمناكفته أكثر، فأمسكتُ بيدِهِ التي كان يمدُّها أمام كرشِه، وأكملت:

- اعلَمْ يا إتسفيكا أنَّ الأيديولوجيا لا تموت، بل تتطور بالتفاصيل البسيطة، نحن بحثنا عن أرْض يكون لمن يحكمُ العالمَ مصلحةٌ بأنْ نكونَ نحن فيها، ولكي تكونَ علاقتُنا بالأرْض مقنعةً، علينا أن نجعلَها مُغمَّسةً بالفكرِ مهما كان أساسه، سواء كان دينيًّا بحتًا ومرتبطًا بالتناخ «الكتاب المقدس» أو تاريخيًّا دينيًّا مثل قصة مغارتنا!

انتفض إتسفيكا من مكانه ورمى بيدي من فوق يده بعنف شديد، حتى ارتطمت يدي بالمقعد الأمامي، وكانت ردة فعله هذه كافيةً لأفهَمَ أنَّ موضوعَ المغارة هو الخطُّ الأحمرُ، ويمكنُ أن يكونَ متسامحًا بكلِّ شيء إلا بكشف السِّرِّ أمام أيِّ أَحَد، حتى لو كان شريكَهُ الذي يُخفي معه سِرَّ شراكتِهم في مصنع الطاليت عنّي.

انتبهَ يوناتان لما حصل، ولكنَّهُ لم يرَ وجهَ إتسفيكا والحركات التي أوحى بها لي في ملامح وجهه؛ أَنْ أَصْمتْ، ففعلْتُ، وكما هي العادة في أيِّ شجار مع إتسفيكا، نتجاهَلُهُ ولا نتحدَّثُ فيه لاحقًا، ويمضي إلى ملفّات النسيان، أو التناسي؛ لأنَّ المصالحَ المتبادلَةَ تتغلَّبُ على المبادئِ العامّةِ والشعارات.

ومع ذلك بَقيتُ أخوضُ غمارَ التَّحليلِ بيني وبين نفسي حول ما وصلنا إليه في إسرائيل، فالقُوَّةَ تزول، والمصلحةُ التي وجدَها فينا مَنْ قرَّرَ مُساندَتَنا لإنشاء وطننا هنا سوف تنتهي، والسياسة سِجالٌ؛ يومٌ لك ويومٌ عليك، كيف نعود لنغرسَ روايتَنا التي استغنى عنها إتسفيكا ومَنْ معه في أبنائنا؟ ماذا سيحصل إن تشوَّهَتْ روايتُنا وتأثَّرَتْ بمصالحَ مؤقَّتَة، ونَجَحَ جيرانُنا الأعداءُ نبيه وزوجتُهُ في إبقاءِ روايتهما حيّةً، ليس المهمُّ مَنْ هو أكثرُ استحقاقًا أو ما هي أوجُهُ تحقيقِ العدالة والمساواة؛

لأنَّ كُلَّ ذلك هو نسجٌ من الأكاذيب والألاعيب التي نستغلُّها ونحن أقوياءُ لتحقيق إنجازٍ أكبرَ، وشبكة مصالحَ أنجحَ، أمّا هُمْ، فعَلَيْنا دفعهم ليفنوا عمرَهُم وهم ينادون بتلك العدالة، ويطالبُون بتحقيقها من ولادتهم وحتى مماتهم، ولا يحصلون عليها طَبْعًا؛ كيف نحافظ على دورهم التاريخيِّ في إطار المطالبة فقط، فالمعنى الحقيقيُّ للقوَّة هو ليس قوَّةَ السلاح والدَّعم الخارجي، بل بتقليل عدد الأعداء مقابلَ كلِّ إنجاز. وكنتُ دوْمًا مقتنعةً بتعريف النَّجاح على أنَّهُ: «أن نحقق أكبرَ كَمٍّ من الإنجاز بأقلِّ عدد من الأعداء»، وربما هذه الفكرة هي التي دفعتني للصَّمت، وعدَم كشْف معرفتي بما يُخفيه إتسفيكا عنّي من أعمالٍ معَ شريكه يوناتان الصغير.

لقد نجحْنا بتأسيس دولة إسرائيلَ على الرَّغم مِنْ أنَّ كُلَّ شيء ضدَّنا، أمَّا السنواتُ الأخيرةُ هذه، فقد فقدْنا فيها البوصلة، ولَرُبَّما نحوّلُ أقربَ الأصدقاء إلى أعداء، بسبب تعالي إتسفيكا ومن يتبعُهُ على قوانين السِّياسة العالميَّة.

إنْ فَعَلْنا ما علينا فعْلُهُ، فسنعيشُ نحن إلى الأَبَد، وسيبقون هم كذئب وحيد «زئيف بودد» في الغابة، وحتى مَنْ يناصرُهُم ويساعدُهُم بسبب اللغة أو الدين أو العرْق، أو أيِّ سببٍ آخرَ، سينقلبُ عليهم تحقيقًا لمصالحه معنا، وكنتُ أفكِّرُ بفكرتي العبقرية التي حوّلَتْ مغارةَ الفلسطينيين في بيتنا الذي حررناه إلى مَزارٍ دينيٍّ وإرْث صهيونيّ، وهل أحملُ أنا فقط الجينات الأصيلةَ لشعبٍ احترَفَ الدَّهاءَ من فجرِ التاريخ؛ ليَنْجُوَ بحياته، بينما يفتقرُ إتسفيكا لهذه العبقرية الفريدة بسبب جيناته المخلوطة بين الإشكيناز والسفاراديم الشرقيين؟

إنَّ ذكاءَ شعبنا الذي ورِثْتُهُ أنا رونيت بنت الطبيب حاييم إرليخ لم يولدِ اليومَ، فمنذ «تعنيت إستر» صوم الملكة إستر، واختراع عيد المساخر تخليدًا لذلك اليوم الذي نجا فيه الشَّعْبُ اليهوديُّ من مُؤامرة «هامان»

كبير وزراء المَلِك أحشورش ملك الفُرْس على اليهود قبل 3500 عامًا تقريبًا، وإقناعه للملك بإبادة اليهود، لا لشيء، وإنَّما لخَوْفه فقط من مردخاي الوزير اليهودي عمِّ إستر ملكة الجمال، حيث أخطأ مردخاي كما أخطأ إتسفيكا اليوم، فقد كشَفَ نفسَهُ بالخطابات والتصريحات، وأكْثَرَ منْ ظُهوره وتأثيره غير المدروس على سياسات الإمبراطوريَّة، حتى جعَلَ هامانَ اللعينَ عَدُوًّا لشعب إسرائيلَ بدلَ أنْ يُصبحَ صديقًا لنا.

وعلى عكس شجاراتنا التي تنتهي عادةً بالتناسي، وتكملة الدَّرْب، استغلَّيْتُ مساءَ الجمعة، وبعد وجبة ليلة السَّبْت بقليل، وبعد الانتهاء من أداء كُلِّ الطُّقوس والصَّلوات، دَعَوْتُهُ إلى غرفة النَّوم الجديدة التي أضفناها الى البيت القديم بمباركة البلدية، وبكُلِّ هُدوء قلتُ له:

- إتسفيكا تكشيف «اسمع يا إتسفيكا»، كُلُّ ما غَرَسْناهُ في الأَرْض القديمة، حتى وإنْ نَما وَغَطّى على وجودهم هنا، إلّا أنَّهُ لم يَمْحُ وَطْأةَ أقدامهم على الأَرْض بعد، ولم تصبح الأَرْضُ الجديدةُ لنا حتى لو غيَّرْنا أسماء الشوارع وشوَّهنا لَفْظَ أسمائها، واشترَيْنا النُّفوسَ الضَّعيفةَ لتخدمَنا ونرميَها بعد ذلك. إذا فزْتَ في الانتخابات يا إتسفيكا عليك العودة للحلم الصهيوني بعيدًا عن حاخامات السفارديم والمستوطنين الجاهلين، علينا يا إتسفيكا التخلص منهم بذكاء، وليس بالقتل والعنف، بل بالتهجير الصّامت والدَّهاء بمَحْو اسم الفلسطينيّين من العالم، حتى لو أخَذَ ذلك قرنًا كاملًا من العمل.

شعرتُ أنَّ إتسفيكا يسمعُني، وبدأ يصغي إليَّ، فأكملْتُ حديثي الهادئ:

- كيف يا إتسفيكا نسمحُ اليومَ أنْ يكونَ في أَرْض إسرائيلَ أعدادٌ كبيرةٌ من غير اليهود «الغوييم» الأغيار الذين حدَّدَنا دورَهُم التاريخيَّ بأن يكونوا خَدَمًا لنا يوم السبت، وليس ليكونَ عددُهم مثلَ عددِنا، ولهم

كياناتٌ سياسيةٌ تكادُ تكون شرعيّة! لقد استندَ مشروعُ هرتسل على الأرْض الخالية من الشَّعب، والتي يَمُرُّ بها بعضُ البَدْو رُعاةُ الأغنام، ويسودُ عليهم بعضُ العملاء المنتفعين، حتى وإنْ كان هذا وَهْمًا، فنحنُ مَن اخْتَلَقَهُ وعزَّزَهُ، وقد سَبَقَ ونجحنا بإقناع قوى العالم المنتفعة من فائدة تَجَمُّعنا في أرْض إسرائيلَ بهذا الوهم، وكان الرهانُ أنَّهُ على مدار السَّنوات سنقتلعُ البشرَ ونغيِّرُ الحجر، ونبني الحضارة، ونصنعُ لها تاريخًا مصبوغًا بالدين، ولكن كيف وَصَلْنا إلى صراع متواصل، وخَطَر ديموغرافيٍّ يناهضُ سياساتنا المعلنةَ والمخفيَّةَ؟ وكيفَ لمن هُمْ مثلنا من أولئك الذين يحملون الفكرَ المؤسِّسَ للدولة أن يسقطوا في فَخِّ الطمَعِ والعُنْف، الحلُّ يا إتسفيكا ليس بقَتْلهم علنًا.

سكتَ إتسفيكا وتوقَّفَ عن الحركة، تمركزَتْ عيناهُ على ستارة الشُّبَّاك التي طرَّزْنا عليها رَمْزَ الشَّمْعدان لنَسْتَفزَّ فيها كُلَّ عابرِ سبيلٍ في حَيِّ العَرَب، فيفهمُ أنَّ هذا البيتَ عاد لليهود، وبعد عدة ثوانٍ شعرْتُ بأنَّها ساعةٌ من الزَّمَن، نَظَرَ إليَّ وقالَ، وملامحُ الغباءِ تظهَرُ على وجهِهِ:

- رونيت لو هيفنتي! لم أفهَمْ يا رونيت! ماذا تريدين؟

اعتبرْتُ جملتَهُ هذه بدايةَ تأثيري السياسيِّ عليه، وقرَّرْتُ أنْ أستخدمَ أُنوثَتي، فأَكْمَلْتُ:

- إتسفيكا أهوفي، حبيبي إتسفيكا إنَّ فشَلَنا في حرب العام 1967م هو ما يدفعُ ثَمَنَهُ شعبُ إسرائيلَ الآن، لقد اعتقدنا أنَّ تحريرَ باقي أرْض إسرائيل من الأردنِّ ومصر في حربٍ خاطفة وسريعة هو انتصارٌ كاسحٌ، ولكنْ في الحقيقة هو الهزيمة بعينها! فحربُنا على العرب ليست عسكريّة؛ لأنَّهُ من المفهوم ضمنًا أنَّنا نحاربُهم بأسلحة وعسكر وحلفاءَ معروفين ومخفيّين، ومن المؤكَّد أنَّهم لن يستطيعوا مجابهَتَنا، ولكن هذا النصر العسكري الخاطف هو خسارةٌ مُخزِيَةٌ للأيديولوجيا

الصهيونيَّة، مَنْ طَلَبَ منّا أن ننتصر في ستَّة أيّام فقط؟ إنَّ الله بعَظَمَته خلق الكون بستَّة أيّام، فمَنْ نحن لننتصرَ بستَّة ساعات أو أيّام! هذه السرعة في إنهاء المعارك لم تسنحْ لنا بتهجيرِ العرب، ولم ترعبْهم أو تُعَرِّضْهم كما يجب إلى ويلات الحرب؛ كي يهربوا إلى عشرات الدول العَرَبيَّة مِنْ حوْلهم، رُبَّما هو استعراضُ القوَّة؛ ما أفشلَنا! أم هل هو غرورنا الزائد بأنفسنا! إنَّ حربَنا هي على أرْض بلا شعب، وليس على أرْض مليئة بالسُّكان يا إتسفيكا. لقد أضَعْنا فرصتَنا الأخيرةَ للخلاص منهم! وكان من الممكن ألا يبقى منهم أحَدٌ، ومن يفلت من تهجيرنا نُبقيه هو وذريَّتَهُ لتجميلِ صورة احتلال الأرْض بين شعوب العالم، نعتبرُهُم ضمنَ فئة الأغيار «الغوييم» المهزومين الذين سوف نُقنعُهم بأنْ يَشكرونا يومًا ما؛ لأنَّنا نُوَفِّرُ لهم العمل، وسوف نضعُ أمامَهم كُلَّ المبرراتِ كي يقتنعوا بأنَّ احتلالَنا لهم هو ما يجلبُ لهم التقدُّمَ والحضارة.

قاطعني بجملة ليس لها أيُّ معنى قائلًا:

- رونيت هل تسمعين ما تقولين؟

فتجاهلْتُ مداخَلَتَهُ هذه وأكملت، رُبَّما يَتعاطى معي في النهاية، وقرَّرْتُ أنْ أنتقلَ إلى مستوى الأمثلة البسيطة حتى أسحَبَهُ إلى ما أقولُ أكثر!

- يا حبيبي، سوف يصدِّق هؤلاء الميعوطيم «الأقليات» عاجلًا أم آجلًا أنَّ شُرْطَتَنا تُحَرِّرُ لهم المخالفات بدون سبب؛ لأنَّهم يستحقون المخالفة، وأنَّ شرطةَ إسرائيلَ تفعل ذلك كي تحميَهم من الحوادث، وتمنعَهم من الخَطَر، وتحافظَ على سلامتهم، وسوف نحرمُهُم من تربية المواشي في بيوتهم وبساتينهم بحجة الحفاظ على البيئة ومكافحة الاحتباس الحراري، ليشتروا النقانق المجمدة، كما يفعل

أغلب الإسرائيليين في عيد الاستقلال، وسنراهم يشوونها على الفحم مثلَنا، وهم يحتفلون بدون أن يدروا بماذا! وسوف نوزِّعُ عليهم أعلامَ إسرائيل بالمَجّان؛ ليجعلوها تُرَفْرِفُ فوقَ رؤوسهم بعد وجبة النقانق عشيَّةَ يوم الاستقلال، هؤلاء هم الغوييم الذين نريدهم وليس غيرهم.

- يا إتسڤيكا علينا أن نفعل كل شيء لتطغى روايتُنا على روايتهم، أمّا هم ... للأسف، ما عليهم إلا أن يحافظوا على روايتهم، فهي هناك بشكل طبيعي، ولكنَّ التحدي الأكبر لديهم هو أن يُبقوها على قيد الحياة، وهذه مَهَمَّةٌ يجب أن نجعلَها مستحيلةً عليهم! لأنَّ الروايات تموت إنْ لم نفتخرْ بها، ولم نروِها ونعزِّزْها وننقلْها من جيل إلى آخر، ولا تنسَ أنَّ طَمْسَ روايةِ المهزومين أصعبُ من اختراع روايةٍ للمنتصرين.

أعجبتْهُ الأمثلةُ، وبدأ يبتسمُ لي، ويدركُ ما الذي أصبو للوصول إليه، ولكنّني للأسف تحمَّسْتُ قليلًا، حتى انقلبَ ضدي، فأكمَلْتُ:

- أنت يا إتسڤيكا ومَنْ حولك قد تماديْتُم بعنجهيَّتكم وتسرُّعِكُم وابتعادكم عن الأيديولوجيا الصهيونية، صوّبْتُم بنادقَكُم نحو أرجلِنا واحتفلْتم بإصابتنا!

جُنَّ جُنونه، وخرج عن طَوْرِه، أزاحَ نَظَرَهُ عن الستارة والشمعدان المطرَّزِ عليها، شَتَمَني بشتائم العَرَبِ القَذِرَة، وفي طريقِ خروجِه من الغرفة وقف أمامي كالوحش، نظر داخل عينَيَّ، وقال:

- ماذا تفهمين أنتِ عن إسرائيلَ والدولة والسياسة؟ وهل تعتقدين أنَّهُ فقط لأنَّك صاحبةُ فكرةِ المغارة سوف تبقين تبتزّينني وتعطينني الحِكَمَ والمواعظَ عن مستقبلي السياسي؟!

- شتيساريف هامعاراة، لِتَحترقِ المغارة، ولتذهبي معها إلى الجحيم!

خرج من الغرفة وتركني خلفه أفكّرُ بألا أَمَلَ أبدًا فيه، وأنَّ مستقبلَ أولادِنا وأولادِ شعبِ اللهِ المختارِ سوف يكون بخطرٍ مع إتسڤيكا وأشكاله!

فهل نسكت؟ وهل صعود إتسڤيكا ومَنْ مثلُهُ إلى المشهد السياسي هو بإرادة وتخطيط من يحكمون العالم من خلف الكواليس، أم أنَّها طفرةٌ سوف تنتهي قريبًا ونعود إلى سابق عهدنا؟

الفصل الثامن والأخير:

المستقبل

نبيه 3: سوف يُسعفنا
الشعب الأصيل... دوْمًا

بعدَ كُلِّ هذه السنوات على النَّكْبَة والنَّكْسَة، وبعد مرور النِّضال الفلسطينيِّ بمراحلَ عديدة، لم تَعُدْ قيادةُ الصِّراع محصورةً على مستوى القيادات من كلا الطَّرفيْن، أو بينَ فئات واضحة كجماعات لها أفكارٌ وتوجُّهاتٌ حزبيَّةٌ أو تنظيميَّةٌ في الجانب الفلسطينيِّ، أو حكومة وجيش فقط في الجانب الإسرائيليِّ، فمن الثورة ضد الاستعمار، والثورةً الفلسطينية والجهاد المقدس إبّان ضياع فلسطين عام 1948م، إلى الإيمان بالقوميَّة العَرَبيَّة، وبقدرة العرب على تحرير فلسطين في خمسينيَّات وستينيّات القرن الماضي، إلى الثَّوْرَة الفلسطينيَّة الحديثة المُسلَّحَة تحت لواء منظَّمَة التَّحرير، ومنها إلى الانتفاضة الشعبيَّة داخل الأرْضِ المحتلة، وصولاً إلى التَّسويَة السِّلْميَّة الأولى بإنشاء سُلْطَة للحُكْمِ الذَّاتيِّ، تتحوَّلُ فيما بعد إلى دولة مستقلَّة «ما لم يحصل كما نريد طَبْعًا» ومنها انفجَرَت الانتفاضة الثَّانية عامَ 2000م بعد الفشل في تحقيق اتفاق الوضع النِّهائيِّ بين ياسر عرفات وإيهود باراك، كانت الانتفاضةُ الثانيةُ ولأوَّلِ مَرَّة منذ النكبة مقاومةً مسلَّحَةً بسلاح محدود وبسيط داخلَ الأرْض المُحتلَّة، سرعانَ ما سيطرتْ إسرائيل على العنفوانِ الثَّوْريِّ لدى مُنتَسبي الأمنِ الفلسطينيِّ الذين ساندوا الشارع، وهبّوا لحماية شعبهم بما يمتلكون من سلاح، ولكنه أعطى الحجةَ لمَحْوِ كُلِّ ما توهَّمْنا بإنجازه كحُكْم ذاتيّ منزوع السيادة. أمّا في القدس، فكلُّ هذه المراحلِ لم تُغَيِّرْ شيئًا على أرْض الواقع، سياسة دولة إسرائيل واضحة من اليوم الأول بعد غارة عام 1967م، فيقولون ويفعلون:

- الأرْض والتاريخ لنا، وسوف نفعلُ كُلَّ ما يمكن للتخلُّص من الفلسطينيّين الذين يبقون في المدينة، وفي أحسن الأحوال سوف نحوِّلُهم إلى أيد عاملة رخيصة بدَلَ استيرادها من الشَّرقِ الأدنى!

تَشَرْذَمَت الحالةُ الفلسطينيَّةُ بعد اندلاع الانتفاضة الثانية، وخاصة بعد رحيل قائد الثورة الفلسطينية المعاصرة ياسر عرفات، حلَّ انقسامُ

في أرواحهم، وليس من واجبنا عملُ أيِّ شيءٍ لتحسين شعورهم، ولا أن نجلس معهم على نفس طاولة ليزيلوا عقدة الذنب من قلوبهم.

كل هذه المعرفة تراكمت في القدس، وأضافت أطنانًا من الثِّقَة المجبولة بالكرامة لدى الجيل الجديد، فغدا مدركًا تمامًا من الذي أمامه بتَجَرُّدٍ من أثر الإعلام المسموم، والمبالغات الهادفة للترعيب والتخويف، هذه المعرفة وللأسف غابت تمامًا عن منظومة الحكم الذاتي الفلسطيني التي وُجِدَتْ حَسَبَ رأينا نحن الفلسطينيّين على الأقلّ، لترسو بنا في ميناء الدولة المستقلة على حدود 67 والقدس عاصمة لنا، ولكن مع كثافة غيوم الإحباط والفشل المتكرر من إحراز أيِّ تقدُّم على مستوى القيادة في إنهاء الاحتلال وقيام الدولة، تحول الحكم الذاتيُّ الفلسطينيُّ إلى منظومة شائكة من المصالح الشخصية والجماعية لطبقات وفئات عديدة في المجتمع، هذا الظلامُ الذي تكرَّست عتمتُه في ذهن كُلٍّ من يصلُ إلى كرسيِّ الحُكم (تحت الاحتلال) مهما كانت خلفيَّتُه وتاريخُهُ ونضالُهُ، أدّى إلى تفاقُم الوضع، وتعقيد الأمور، وأضحى التشبُّثُ بالمنصب والراتب من القواعد المتينة التي تؤمنُ بأهميَّة الحفاظ على الوضع القائم حتى لا تنهارَ المنظومةُ، ونخسرَ إنجازاتنا ومكتسبات الشعب الفلسطيني، التي لا يعرف قرابة الـ 70 % من أبناء الشعب وهم المولودون بعد اتفاقيات الحكم الذاتي (التي تخلت عنها إسرائيل) أين هي هذه المكتسبات التي نخشى عليها؟ وأصبَح كل من يحاول أن يفكر بطريقة مختلفة ويعمل شيئًا جديدًا، حتى ولو كان على استعداد لتحمل وزره مُتَّهَمًا بالعمالة والخيانة، ويصل الأمرُ في بعض الحالات إلى وصفه بأنه خارج عن الخَطِّ الوطنيِّ الذي رسَمَتْهُ فئةٌ حاكمةٌ لفئةٍ محكومة!

سألتني حوريَّة يومًا:

- لماذا تمضي حياتك وتصرف طاقتك بالعمل مع الجيل القادم، وتنسى الجيل الحالي؟ وباللغة العاميّة قالت: أنت لَيمتى بدّك اتضلّ تْضَيِّعْ طاقتك ومصاريك على الولَدّة؟ يا زلمة حدا مثلك باسْمَكْ وتاريخك بْتقْدَرْ تكون بكرا وزير بالسلطة وتغيِّرْ شو ما بدك؟

لم أجدْ حلًا إلّا أنْ أَرُدَّ عليها بقصة قصيرة، وهي شهيرة من باب التندُّر، ولكنّني رأيتُها على أَرْض الواقع، ومرات عديدةً وبأشكال مختلفة. فقلت لها وأنا أنظر من شُبّاكِ غرفةِ النَّوم على ساحة مغارةً إتسقيكا ورونيت:

- جلس طالبٌ شابٌّ في محاضرةِ رياضيّات في الصفِّ الأخير لمُدرّج جامعته الشهيرة، ومن كثرة التعب غطَّ في النوم لعدة دقائق خلالَ شرح الأستاذ لدرسٍ مُعَقَّد ومتشابك، في أثناء نومه القصير دخل إلى الصف رئيس الجامعة ومعه مجموعةٌ من جهابذةِ الرياضيات، وأعلنوا للطلبة أنَّهم وجدوا المعادلة التي لا يمكن حلّها، وهي التي ستبقى خالدة على مَرِّ الزمان، كتبوها على السبورة وانصَرَفوا! استيقظ الشاب من غفوته، وبالطبع لم يسمع كل الكلام الذي قيل، نظر إلى السبورة فوجد عليها معادلة، ظنَّ أنَّ الأستاذ طلب حلَّها، فبدَأ بذلك فورًا، وانهمَكَ بالحلِّ لمدةٍ من الزمن حتى وجده بدون أن يعرف أنَّه لا أحَدَ من زملائه تجرَّأ حتى على المحاولة، ولولا نومُهُ في تلك المحاضرة لرُبَّما هو أيضًا لم يكن ليحاول».

من تلك اللحظة فُتحَتْ أبوابُ جهنَّمَ عليه، فكيف له أن يحلَّ المعادلة، وقد سبَقَ وفشِلَ بحلِّها جهابذَةُ العلْم وماذا سيكون موقفُهم الآن، وكيف سيضرُّ ذلك بمكانتهم وسمعتهم، وفوق كُلِّ ذلك مصالحهم الشخصية ومصالح الفئة التي ينتمون إليها! وكيف له أن يُصِرَّ على أنَّهُ على صواب رغم أنَّهم حاولوا إقناعه بعكس ذلك، وعرضوا عليه الكثير من الحلول

الملتوية ليكون هو الغلطان، وتستمر العقدة كما هي، ويستفيدون من بقائها المرتبط ببقائهم! وكيف أنه لا يبحث عن الصفة الشرعية التي يمنحونه إياها بضمّه إلى دائرتهم التي وقفت مكانها منذ عقود، ويُصرّ على أنّهُ حلّ المعادلة، وبحلّها يمكنُ أن يغيِّرَ الواقع حتى لو كان قليلاً.

وأكملتُ لزوجتي التي تعرف كلَّ شيء، ولا حاجة لأن أتفلسف عليها، ولكنها تخشى عليَّ من بَطْش السّاسة فتختبئ خلف الطرح البسيط والمتواضع لقضايا خلافية فتسأل: «ليش»؟

فأجبت:

- يا حوريَّةُ، بعد انهيار المنظومة الفصائليَّة، أصبَحت مقاومةُ المحتل حالةً شخصيَةً وليست حالةً جمعيّةً، فهي تتأثَّرُ بالظروف العامّة، علينا أن نُبقيَ فكرةَ مقاومة الاحتلال فكرةً حيّةً في جميع المجالات التي يمكن لنا أن نحقق فيها انتصاراتٍ صغيرةً هنا أو هناك، أن تبقى القدس وفلسطين تسري في عروق الجميع، وكل واحد بطريقته وتفكيره وترتيبه الشخصي، وهذا ما سوف يحوّلُ الصّراعَ على الأرْض إلى اشتباك في جميع الميادين المحليَّة والدوليَّة، وهكذا تصبح عمليَّةُ القمع والعقاب الجماعي واختراق المجموعات المنظمة وإفشالها حالة معقدة جدًّا على الآخر، لأنَّ عليهم زرعَ مُخبرٍ في كُلِّ بيت، وكُلُّ بيت لا علاقةَ بينَهُ وبينَ البيت الذي بجانبه، سوف يلجؤون إلى الحلول العنيفة، ومنها قراراتهم العبقرية بتسليح المستوطنين أكثر وأكثر، وإطلاق أيديهم في الشوارع ليبطشوا بنا، علينا أن نتحمَّلَ ثمَنَ المعادلة التي حللناها حتى تظهر للعالم أجمع، سوف يصبح الصّراع في القدس على وجه التحديد، وفي حيِّنا الشيخ جراح بين كُلِّ مستوطنٍ ظالم بنظرته الاستعلائية الوقحة، وكُلِّ فلسطينيٍّ مظلوم بِصَبْرِه وَصمودِه علَى المستوى الشخصيِّ البَحْت، وبذلك نُراكمُ الإنجازَات عن طريق العدالة والتحرُّر، وليس عن طريق الحفاظ على الوضع القائم وعدم المساس به.

اقتنعَتْ حوريَّةُ بينها وبين نفسها «كما أظُنُّ» ولكنَّها بطبيعة الحال استاءَتْ من كلامي كما هي العادة أمامي، كان من الصعب عليها التعبيرُ عن مشاعرها؛ لتُبْقِيَ خوفَها عَلَيَّ الذريعةَ للحفاظ على البرغماتية المُفْرِطة التي تتحلّى بها، وبعد منتصف الليل بقليل قالت لي:

- خَلَصْ بِكْفيك أحلام، واتْرُكْ هالشُّبّاك اللي واقف عليه من المغرب، وْيلّا نُدخل انَّام، بُكرا عنّا شُغُل!

أطعتُها طَبْعًا بمحبَّة واستسلام، ودخلنا للنَّوْم، ولكن: يا فرحة ما تَمَّتْ، أخدها الغُراب وْطار!

استيقَظْنا قبل أذان الفجر بقليل على صوت سيّارات الإسعاف والإطفائية، وطَبْعًا دويّ صفارات الشرطة والأمن، وإذ بها المغارة، أي مغارة الخالة رُقَيَّةَ التي آوَت الثُّوَّارَ تحترقُ وتصعد النيران إلى المطبخ، ومنه إلى غرف النوم في الطابق العلوي، أضرمَت النّارُ في المغارة في يوم كان به إتسفيكا ورونيت في مؤتمر في بني براك مدينة اليهود المتدينينَ الأولى، ينقل إتسفيكا هناك تجربتَهُ ونجاحه الفذّ من على المنَصَّة إلى مجموعات الأشكناز المتديّنين، وكان أطفالُهم يزورون عمَّتَهُم في مستوطَنَة عوفرا شمال القدس، إنَّها ليست صدفة، فجميع أَهْلِ الحَيِّ يعرفون برنامج ونشاطات إتسفيكا ورونيت، لأنَّهم يُفصحونَ عنها عَلَنًا بتَكَبُّر، وما على الناس إلا الإصغاءُ للجيران، فهي صُدْفَةٌ منطقيَّةٌ؛ أن تَعْلُوَ النيرانُ ولا يكونَ في المنزل سوى عناصر الأمن الذين يحرسون المغارة، وقد غادروها وهربوا فورَ إلقاء أوَّل عبوة مولوتوف إلى مدخل المغارة.

لقد انتهى عصر الأسطورة الأمنية الإسرائيلية التي تكشفُ كلَّ شيء قبل أن يحدث، أو خلال فترة زمنيَّة قصيرة، وبدأ عصر (العينُ بالعين، والسِّنُّ بالسِّنّ، والبادئُ أظلم) وفي كُلِّ مَرَّة يحصلُ بها أيُّ نوع من أنواع مقارعة الاحتلال بالكَرِّ والفَرِّ، يُحَوِّلُ المستوطنون حارتَنا إلى

ثَكنَة عسكرية، يتحرشون بالنساء على الحاجز الذي ينصبونه لإعاقة السكّان من الوصول إلى بيوتهم، يضربون الأطفال، ويستفزون الشباب ليرسلوهم إلى المعتقلات، إنَّهُ مشروع إحلال اليهود بدل العرب، ويا له من مشروع فاشل، فكلما اعتقدوا أنهم انتصروا بسبب ظنِّهم أنَّهم أوصلوا الناس إلى الخنوع، وحالة من عدم الاكتراث والسلبية والانطواء جرّاءَ ما يحصل خارج بيوتهم، يأتي شابٌّ هنا أو شابَّةٌ هناك يُلهِمُ أقرانه، ويتصرف بما يراه مقنعًا له، ولا يأبه بالتصريحات السياسية أبَدًا، ولا بالشعارات ولا بالمزاودات التي احترف جيلنا نحن إطلاقها للهروب من أيَّة مساءلة، سواء بيننا وبين أنفسنا، أو أمام أَهْلنا وناسنا؟

قَطَعَ إتسڤيكا رحلته فوْرَ معرفته بخبَر احتراق المغارة، وعرف أنَّهُ تم إنقاذ البيت قبل أن يحترق بالكامل على أيدي رجال إطفاء فلسطينيّين يعملون في محطة إطفائية وادي الجوز، أرسل رونيت لتبقى مع الأولاد في المستوطنة لحين تأمين بيت الخالة رقية وترميمه من جديد، وإيجاد قصة جديدة بعد احتراق مقتنيات رونيت من جدتها، والحقيبة التي أصبَحت المغارة بسببها كهفًا دينيًّا مدّرارًا لأرباح لم تكن بالحسبان! لم تقبلْ رونيت بالغياب عن ساحة الأحداث بسهولةً؛ لخَوْفها من استغلال زوجها لما حَصَلَ، وبالتالي قد يُخرجُها من المصلحة، وربَّما يتجرَّأ الآن، وينفذُ أحلامَهُ بتشغيل المغارة لحسابه فقط، وهي تعلم جيِّدًا أنَّهُ لم يُبقِ عليها بجانبه كُلَّ تلك السنوات إلا لأنَّ سرَّ المغارة عندها، وأنها تستطيع بكلِّ سهولة فضحَ الموضوع، وهو يعلمُ أنَّهُ إذا حانت الساعة، وقرَّرَ تَرْكَها، فسوفَ تنتهِجُ مبدأ «عليّ وعلى أعدائي»، لكنَّ إتسڤيكا كان أذكى من أن يبدأ صراعًا مع رونيت، فوعدَها أن يستغلَّ ما حصل لمصلحتهما، وطَمْأَنَها كما يبدو أنه لا تغيير على الوضع القائم بينهما، وبذلك مرَّتْ في طريقها لبيتِ أختِها لخمس دقائقَ فقط، اطلّعَتْ على الأضرار، وشتَمَتْ

بصوتٍ عالٍ العرب، وعملت مسرحيَّةً كاملةً أمام عناصر الشرطة والمخابرات وخرس الحدود، وكأنَّ البيتُ قد ورثَتْهُ عن أجدادِها، وليس أنَّهم حصلوا عليه بالمجان واستوطنوا به عنوة.

وكما كان متوقعًا، استغلَّ إتسفيكا الفرصة السانحة، وتسبَّبَ باعتقال أبناء الحَيِّ الصغار والكبار كافّة، وأنا معهم، وقد سرَقَني العمرُ، ولسْتُ بدائرة الشُّبهات بتنفيذ أيِّ عَمَلٍ تخريبيٍّ حسَبَ قول مُحَقِّق المخابرات الذي اعتقلني، إلا أنَّ إتسفيكا اتَّهمني بالتحريض، قابلت إتسفيكا والأساور في يديَّ خارجًا من المنزل مع الجنود الذين يقتادوني إلى التحقيق، وفي عينيَّ كُلُّ الشماتة، فقلت له:

- إتسفيكا، ماه... نسراف هاعيسيك، (ماذا يا إتسفيكا، احترقت المصلحة (محل العمل؟) وقررت أن تشتغل فينا، خسارة على وقتك وجهدك، لن يخرج لك أيُّ شيء من هذا!

فأجاب بكلِّ وقاحة:

- نبيخ... أنت لا تعرف كم ساعدني ما حصل، أردت أصلًا أن أُرَمِّمَ البيتَ بالمجّان!

لقد نطقَ إتسفيكا هذه الكلمات، وأنا أعلمُ تمامًا أنَّهُ كاذب، وأنَّهُ يحترق من الداخل، ولكن هذا هو أسلوبهم التاريخي بالإنكار! هو يعرفُ أنَّ هذه الألاعيبَ لم تَعُدْ تَمُرُّ على مَنْ هم بتجربتي، ولكن للأسف هو تَعَمَّدَ نُطْقَ هذه الكلمات أمامَ عدد من سُكان الحَيِّ، خاصة الشباب من بينهم، وليوهمَهم بأنَّهُ مُسيطِرٌ، وأنَّ ما حصلَ لمصلحته، وأنَّ أيَّةَ أعمال تحصلُ في القدس فهي تخدمهم في النهاية، ليبقى الجيلُ الغاضبُ تائهًا ومستكينًا، أو ليتقبَّلَ الأمرَ على ما هو، تحت شعار «فش إشي نافع!».

فأجبتُهُ فورًا، وأعدت جوابي له بالعَرَبِيَّةِ أيضًا ليسمعَ الجميع:

- رُبَّما يدفعُ لك التأمينُ تعويضات باهظةً، وتعوِّضُكَ الدولةُ بمبالغَ طائلة كي لا تَجْبُنَ وتهربَ، فتعيدَ البيتَ كما كان، ولَرُبَّما تشتري سيارةً فارهةً وتزيدُ راتبَ سائقكَ إلعاد، ولكن ما تمَّ إحراقُهُ يا إتسفيكا هي الفكرة، فمن أين تأتي بكذبة جديدة الآن، من الآن فصاعدًا لن يتذكَّرَ أَحَدٌ سوى الحريق، ولن تتمكَّنَ من التَّلاعُبِ فيه.

ضحك ضحكةً مُدَوِّيَةً، وقال:

- إنْ لم يَكُنِ الآنَ فبعدين، لا تقلق. لسنا مستعجلين على أيِّ شيء.

بقي إتسفيكا خَلْفي، والجنودُ يَجُرّونَني إلى سيارة الشرطة التي غدت سيارةً كهربائيَّةً فخمة، وفي الرحلة من بيتنا لمخفر الشرطة في شارع صلاح الدين بقي كلامُ إتسفيكا برأسي، وتذكَّرْتُ أيّامَ الرِّحَلِ الجامعيَّةِ التي لم تَدُمْ طويلاً إبّانَ اتفاق أوسلو في أواسط تسعينيّات القرن الماضي، فقد خرجْنا في أحَدِ الأيّام في رحلة مشتركة للطلبة اليهود والعَرَب من الجامعة إلى صحراء النقب، المسافةُ بعيدةً، وسوف نمضي أكثر من أربع ساعات في الطريق، وفوْرَ صعودنا الحافلة، وكعادة العَرَب بدأنا الغناءَ بالعَرَبيَّة، والهُتافَ إلى السائق وتحيَّتَه «يا شوفير دوس دوس الله يبْعَتْلَكْ عروس» سادَ التَّوَتُّرُ المَخفيُّ في الباص، استُفِزَّ الطلابُ اليهودُ وانزعجوا من سماع اللغة العَرَبيَّة، وبدأوا هم بغناء أغانيهم العِبْريَّة التي بالكاد تجد اثنَيْن منهم يحفظون الأغنيةَ نفسَها، ومَرَّةً يُغَنّون بالعِبْريَّة، ومَرَّةً بالإنجليزيَّة، ومَرَّةً أخرى يَخْرُجُ صوتٌ من بين الكراسي، ليُتَمْتِمَ بالروسيَّة، وكُلُّ أغنية لا تستمرُّ أكثرَ من عَشْرِ ثوان! ولكنَّ زملائي من العَرَب أيضًا لم يعجبْهُمُ الوضعُ، ولم يتقبَّلوا أنْ يأخذَ أحَدٌ مكانهُم، وكادت تبدأ مشادَّةٌ كلاميَّةٌ وصراخٌ ومشكلةٌ على تقسيم الأدوار لمن يُغنّي أوَّلاً، حتى انتبَهَ سائق الباص العرَبيِّ للتَّوَتُّرِ الحاصل، فناداني عبر الميكروفون، وعندما اقتربْتُ منه هَمَسَ بأذني قائلاً:

- يا زلمة اتْرُكْهُمْ يُغنُّوا وْما تقْلَقْ، هدول بعد خمس دقايقْ بْتخْلَصْ كُلّ أغانيهم وْبسُكْتوا لَحالْهُم!

سمِعْتُ كلامَ السّائق، ونقَلْتُهُ لزملائي بالسِّرّ، فسَكَتْنا تمامًا عن الغناء، وبالفعل لم تمضِ الدقائقُ الخمس، حتى اختفت أصواتُهم، وتبخَّرَ الغناءُ، ووَضَعَ كُلُّ واحدٍ منهم رأسَهُ بين رجْلَيْه ونام، عَلَت الميجَنا والعتابا من طَرَفنا حتى نهاية الرحلة ذهابًا وإيابًا. وسَرَحْتُ والابتسامةُ على وجْهي؛ على ماذا يستَنِدُ هذا الـ إتسفيكا!

وبعد التحقيق معي لستّ ساعات متواصلة، أين كنت ومع من؟ وكيفَ سمعْتَ بالحريق؟ اتضح سريعًا أنَّ ضابطَ المخابرات الذي جَرَّني أمامَهُ بتُهْمَةِ التَّحريضِ هو نفسُهُ الذي حقَّقَ معي سابقًا بشكوى الحفيد الطارئ الذي يطالب بحصَّته من أملاك العائلة، ويبدو أنَّ ذكاءَهُ أسعَفَهُ ووجدَها فرصةً له ليعاود الضغط، هذه المَرَّةَ كان أكثرَ جرأةً، فقد استدعى الحفيدَ المزيَّفَ إلى محطة الشرطة، واستغلَّ موضوعَ المغارة ليبدأ المساومة، وكما هي العادة بدأ التحقيق بأنَّ لديه أدلةً وشهودًا وفيديوهات تثبتُ أنّني مَنْ أحرق المغارة، وحاول جاهدًا تخويفي لأنهارَ أمامَهُ، فيخرج الحلُّ السحري بأن أعترفَ بحقِّ الحفيد المزيَّف الجالس في الغرفة المجاورة، وأوقِّعَ معَهُ على الفورِ إقرارًا عدليًّا يُثبتُ أنَّ ما يدَّعيه صحيحٌ، وهكذا تنتهي تُهمتي بإحراق المغارة!

كانت محاولتُهُ جدًا بائسةً مع رجل مثلي، وقد بدأتُ حياتي «كافرَ سبت» وتعلمْتُ بأصعبِ الطُّرُقِ كيف أعيشُ في مدينتي رافعًا رأسي حتى لو حَطَّمَهُ صبْيَتُهم أو جنودُهم، فلم تنفعْ كُلُّ هذه المحاولات، ولم ينجحوا «هذه المرة» بالضغط عليّ ليمرروا مخطَّطَهم بالاستيلاء على المزيد من العقارات، ولكن من الواضح أنهم مستمرون بدربهم، وبعدَ الكَرِّ والفَرِّ خلال التحقيق، أخذونا إلى المسكوبية، وهو مركزُ التوقيف الرئيسي في

آخر شارع الأنبياء في القدس الغربية، وألقوا بي وبمن معي من أبناء الحيّ في غرفة تحتَ الأرض لنُعرَضَ على المحكمة في اليوم التالي.

أُطلقَ سراحي في المحكمة الطارئة بمساعدة الجيل الجديد من المحامين «أهل القدس» الذين هَبُّوا للدفاع عنّا مجانًا، ووزّعوا أنفُسَهُمْ على كافة المعتقلين من الحيّ المتهمين بقضية المغارة، فحرَّرونا واحدًا تلْوَ الآخر، بالرغم من اعتراض النيابة والادّعاء بأنَّ هناك ملفات سرِّيَّةً بحَقِّنا، إلا أنَّ القُضاةَ لم يقتنعوا هذه المرَّةَ، فاكتفوا بفرض الكفالات الماليَّة الباهظة علينا، دفعناها من صندوق الحيّ الذي أسَّسَهُ الشبابُ الصِّغار، وبكُلِّ شفافية وصدق جمعوا الأموال من أهل الخير، وأنفقوها على كلِّ ما يُعَزِّزُ صمودَ الشيخ جرّاح أمام هجمات الاستيطان.

عُدْتُ إلى حوريَّةَ في اليوم التالي، وكنت قد أرسلتُ لها خبرًا مع المحامي ألا تأتي إلى المحكمة؛ لأنَّ هذا آخر مكان أودُّ أن تكون هي فيه، وبعد إتمام إجراءات الإفراج كان النهار قد انتهى، والشمس مائلة للغروب، ترجَّلْتُ من سيارة المحامي الذي توقف عند زاوية الحارة بجانب البقالتين، كانت حورية بانتظاري هناك، والدمع بعينيها. وكما يبدو لم تَنَمْ طيلةَ الليل، حضنتني وقبَّلتني، ثم ابتعدَتْ خطوةً إلى الخلف وسألَتْني:

- نبيه.... وبعدين؟

وبلهجة أَهْلِ القُدسِ القديمة قُلْتُ لها:

- لا بَعْدين ولا قَبْلين يا حبيبتي، بدنا نْجيب أولاد حتى ولو كنّا متأخرين شْوَيّ، وخلّينا نزْرَع الفكرة فيهم، حتى لو كانت بعيدة هَلَّأ، خلّينا نسْقيها كُلّ يوم لَتِكْبَرْ وَتِبْتَكِرْ وْتِبْدِعْ، نْعَلِّمْهُم المعادلة الصّعبة كيف يقهرون من يحتلهم بدل أن يقهرهم، وكيف يعيش المستعمر

وعينه ع برا. يا حورية! النوم عَ الحَقّ ما بِرَجْعُهْ، والقدس مشْ شعارات ولا مناصب ولا وَزارات، راح نْضلّ نشْتغِلْ مثل النَّمِل، نِزْرَعْ بْكُلّ يوم أمَلْ، مشْ راح نِتْنازَلْ ولا نِيْأسْ أبَدًا مهما صار.

رَدَّتْ عَلَيّ بتوجس ملحوظ وكأنها تقول لي «بلا شعارات هبلة يا نبيه»، ولكن أيْضًا بفضول لَمَحْتُه بعينيْها لأول مرة في حياتي:

- وْشو راح يْصير؟

وبدون تردُّدٍ أجَبْتْ:

- ولا إشي... ويمكن مش ع زماننا، وأكيد لازم نِقْبَلْ وْنِتْصالَحْ مع حقيقة إنّو القضية لسّا مْطَوّلة، وإحنا بْنبني لغيرنا، وغيرنا راح يبني للي بعده، بس بالآخر لن يكون الا ما نُريد يا حورية.

النهاية

نهاية الثلاثية :

كافر سبت

حرام نسبي

نُص أشكنازي